٥١١
ثم دخلت سنة إحدى عشرة وخمسمائة

ذكر وفاة السلطان محمّد وملك ابنه محمود

في هذه السنة، في الرابع والعشرين من ذي الحجّة، توفّي السلطان محمّد بن ملكشاه بن ألب أرسلان، وكان ابتداء مرضه في شعبان، وانقطع عن الركوب، وتزايد مرضه، ودام، وأُرجِف عليه بالموت، فلمّا كان يوم عيد النحر حضر السلطان، وحضر ولده السلطان محمود على السماط، فنهبه الناس، ثم أذِن لهم فدخلوا إلى السلطان محمّد، وقد تكلّف القعود لهم، وبين يَدَيْه سماط كبير، فأكلوا وخرجوا. فلمّا انتصف ذو الحجّة أيِس من نفسه، فأحضر ولده محموداً، وقبّله، وبكى كلّ واحد منهما، وأمره أن يخرج ويجلس على تَخْت السلطنة، وينظر في أمور الناس، وعمره إذ ذاك قد زاد على أربع عشرة سنة، فقال لوالده: إنّه يوم غير مبارك، يعني من طريق النجوم؛ فقال: صدقت، ولكن على أبيك، وأمّا عليك فمبارك بالسلطنة. فخرج وجلس على التخت بالتاج والسوارَيْن.

وفي يوم الخميس الرابع والعشرين أُحضر الأمراء وأُعلموا بوفاته، وقُرئت وصيّته إلى ولده محمود يأمره بالعدل والإحسان، وفي الجمعة الخامس والعشرين منه خُطب لمحمود بالسلطنة.

وكان مولد السلطان محمّد ثامن عشر شعبان من سنة أربع وسبعين وأربعمائة، وكان عمره سبعاً[١] وثلاثين سنة وأربعة أشهر وستّة أيّام، وأوّل ما دُعي له بالسلطنة، ببغداذ، في ذي الحجّة سنة اثنتين وتسعين [وأربعمائة]، وقُطعت خطبته عدّة دفعات على ما ذكرناه، ولقي من المشاقّ والأخطار ما لا حدّ له[٢]، فلمّا توفّي أخوه بركْيارُق صفت

(١) في الأوربية: «سبع».
(٢) في الأوربية: «عليه».

له السلطنة، وعظُمت هيبته، وكثُرت جيوشه وأمواله، وكان اجتمع الناس عليه اثنتي عشرة سنة وستّة أشهر.

ذكر بعض سيرته

كان عادلاً، حسن السيرة، شجاعاً، فمن عدله أنّه اشترى مماليك من بعض التجّار، وأحالهم بالثمن على عامل خُوزستان، فأعطاهم البعض، ومطل بالباقي، فحضروا مجلس الحكم، وأخذوا معهم غلمان القاضي، فلمّا رآهم السلطان، قال لحاجبه: أنظر ما حال هؤلاء؛ فسألهم عن حالهم، فقالوا: لنا خصم يحضر معنا مجلس الحكم؛ فقال: من هو؟ قالوا: السلطان؛ وذكروا قصتهم، فأعلمه ذلك، فاشتدّ عليه وأكره، وأمر بإحضار العامل، وأمره بإيصال أموالهم، والجُعْل الثقيل[١]، ونكل به حتّى يمتنع غيره عن مثل فعله، ثم إنّه كان يقول بعد ذلك: لقد ندمتُ ندماً عظيماً حيث لم أحضر معهم مجلس الحكم، فيقتدي بي غيري، ولا يمتنع أحد عن الحضور فيه وأداء الحقّ.

فمن عدله: أنّه كان له خازن يُعرف بأبي أحمد القزوينيّ قتله الباطنيّة، فلمّا قُتل أمر بعرض الخزانة، فعرض عليه فيها دُرج فيه جوهر كثير نفيس، فقال: إنّ هذا الجوهر عرضه عليّ، منذ أيّام، وهو في ملك أصحابه، وسلّمه إلى خادم ليحفظه وينظر من أصحابه فيسلّم إليهم؛ فسأل عنهم، وكانوا تجّاراً غرباء، وقد تيقّنوا ذهابه[٢] وأيسوا منه، فسكتوا، فأحضرهم وسلّمه إليهم.

ومن عدله: أنّه أطلق المكوس والضرائب في جميع البلاد، ولم يُعرف منه فعل قبيح، وعلم الأمراء سيرته، فلم يقدم أحد منهم على الظلم، وكفّوا عنه[٣].

ومن محاسن أعماله ما فعله مع الباطنيّة على ما نذكره.

ذكر حال الباطنيّة أيّام السلطان محمّد

قد تقدّم ذكر ما اعتمده من حصر قلاعهم، ونحن نذكر هاهنا زيادة اهتمامه بأمرهم، فإنّه، رحمه الله تعالىٰ، لما علم أن مصالح البلاد والعباد منوطة بمحو آثارهم، وإخراب ديارهم، وملك حصونهم وقلاعهم، جعل قصدهم دأبَهُ.

---

(١) في الباريسية: «السعيل».

(٢) في الأوربية: «ذهابها لهم».

(٣) انظر عن وفاة السلطان محمّد في: تاريخ الإسلام (حوادث ٥١١ هـ.) ص ٢٧٠، وفيه حشدت مصادر الخبر وترجمته.

وكان، في أيّامه، المقدّم عليهم، والقيّم بأمرهم الحسن بن الصبّاح الرازيّ، صاحب قلعة ألَمُوت، وكانت أيّامه قد طالت، وله منذ ملك قلعة ألَمُوت ما يقارب ستّاً[١] وعشرين سنة، وكان المجاورون له في أقبح صورة من كثرة غزاته عليهم، وقتْله وأسْره رجالهم، وسبي نسائهم، فسيّر إليه السلطان العساكر، على ما ذكرناه، فعادت من غير بلوغ غرض. فلمّا أعضل داؤه ندب لقتاله الأمير أنوشتكين شيركير، صاحب آبة، وساوة، وغيرهما، فملك منهم عدّة قلاع منها قلعة كلام، ملكها في جمادى الأولى سنة خمسٍ وخمسمائة، وكان مقدّمها يُعرف بعليّ بن موسى، فأمّنه ومن معه، وسيّرهم إلى ألَمُوت؛ وملك منهم أيضاً قلعة بيرة، وهي على سبعة فراسخ من قزوين، وأمّنهم، وسيّرهم إلى ألَمُوت أيضاً.

وسار إلى قلعة ألَمُوت فيمن معه من العساكر، وأمّده السلطان بعدّة من الأمراء، فحصرهم، وكان هو، من بينهم، صاحب القريحة والبصيرة في قتالهم، مع جودة رأي وشجاعة، فبنى[٢] عليها مساكن يسكنها هو ومن معه، وعيّن لكلّ طائفة من الأمراء أشهراً يقيمونها، فكانوا ينيبون، ويحضرون، وهو ملازم الحصار، وكان السلطان ينقل إليه الميرة، والذخائر، والرجال، فضاق الأمر على الباطنيّة، وعُدمت عندهم الأقوات وغيرها، فلمّا اشتدّ عليهم الأمر نزّلوا نساءهم وأبناءهم مستأمنين، وسألوا[٣] أن يفرج لهم ولرجالهم عن الطريق، ويؤمَّنوا، فلم يجابوا إلى ذلك، وأعادهم إلى القلعة، قصداً، ليموت الجميع جوعاً.

وكان ابن الصبّاح يُجري لكلّ رجل منهم، في اليوم، رغيفاً، وثلاث جوزات، فلمّا بلغ بهم الأمر إلى الحدّ الذي لا مزيد عليه، بلغهم موت السلطان محمّد، فقويت نفوسهم، وطابت قلوبهم، ووصل الخبر إلى العسكر المحاصر لهم بعدهم بيوم، وعزموا على الرحيل، فقال شيركير: إن رحلنا عنهم، وشاع الأمر، نزلوا إلينا، وأخذوا ما أعددناه من الأقوات والذخائر، والرأي أن نقيم على قلعتهم حتّى نفتحها، وإن لم يكن المقام، فلا بدّ من مقام ثلاثة أيّام، حتّى ينفد[٤] منّا ثقَلنا وما أعددناه، ونحرق ما نعجز عن حمله لئلاّ يأخذه العدوّ.

فلمّا سمعوا قوله علِموا صِدقه، فتعاهدوا على الاتّفاق والاجتماع، فلمّا أمسوا

---

(١) في الأوربية: «ست».
(٢) في الأوربية: «فبنا».
(٣) في الأوربية: «ويسألوا».
(٤) في الأوربية: «ينفذ».

رحلوا من غير مشاورة، ولم يبق غير شيركير، ونزل إليه الباطنيّة من القلعة، فدافعهم وقاتلهم وحمى[١] مَن تخلّف من سوقة العسكر وأتباعه، ولحق بالعسكر[٢]، فلمّا فارق القلعة غنم الباطنيّة ما تخلّف عندهم.

ذكر حصار قابِس والمهديّة

في هذه السنة جهّز عليُّ بن يحيى، صاحب إفريقية، أسطولاً في البحر إلى مدينة قابِس، وحصرها.

وسبب ذلك أنّ صاحبها رافع بن مكّن الدهمانيّ أنشأ مركباً بساحلها ليحمل التجّار في البحر، وكان ذلك آخر أيّام الأمير يحيى، فلم ينكر يحيى ذلك، جرياً على عادته في المداراة، فلمّا وليَ عليّ الأمر، بعد أبيه، أنِف من ذلك وقال: لا يكون لأحد من أهل إفريقية أن يناوئني في إجراء المراكب في البحر بالتجّار؛ فلمّا خاف رافع أن يمنعه التجأ إلى اللعين رجّار ملك الفرنج بصِقلّية، واعتضد به، فوعده رجّار أن ينصره ويعينه على إجراء مركبه في البحر، وأنفذ في الحال أسطولاً إلى قابِس، فاجتازوا بالمهديّة، فحينئذ تحقّق عليّ اتّفاقهما، وكان يكذّبه.

فلما جاز أُسطول رجّار بالمهديّة أخرج عليّ أسطوله في أثره، فتوافى الجميع إلى قابِس، فلمّا رأى صاحبها أسطول الفرنج والمسلمين لم يخرِج مركبه، فعاد أُسطول الفرنج، وبقي أُسطول عليّ يحصر رافعاً بقابِس مضيّقاً عليها.

ثم عادوا إلى المهديّة، وتمادى رافع في المخالفة لعليّ، وجمع قبائل العرب، وسار بهم، حتّى نزل على المهديّة محاصراً لها، وخادع عليّاً، فقال: إنّني إنّما جئت للدخول في الطاعة؛ وطلب من يسْعَى في الصُّلح، وأفعالُه تكذّب أقواله، فلم يجبه عن ذلك بحرف، وأخرج العساكر، وحملوا على رافع ومَنْ معه حملة منكرة، فألحقوهم بالبيوت، ووصل العسكر إلى البيوت، فلمّا رأى ذلك النساء صِحْنَ، وولوْلنَ، فغارت العرب، وعاودت القتالَ، واشتدّ حينئذ الأمر إلى المغرب، ثم افترقوا، وقد قُتل من عسكر رافع بشر كثير، ولم يُقْتَل من جند عليّ غير رجل واحد من الرَّجّالة.

ثم خرج عسكر عليّ مرّة أخرى، فاقتتلوا أشدّ من القتال الأوّل، كان الظهور فيه

---

(١) في الأوربية: «وحما».

(٢) في الباريسية جملة مضطربة: «فأظهر الأمراء الذين كانوا معه أن كتب السلطان محمد إلى أصبهان فحبسوه بها إلى».

لعسكر عليّ، فلمّا رأى رافع أنّه لا طاقة له بهم رحل عن المهديّة ليلاً إلى القَيروان، فمنعه أهلها من دخولها، فقاتلهم أياماً قلائل، ثم دخلها، فأرسل عليّ إليه عسكراً من المهديّة، فحصروه فيها إلى أن خرج عنها، وعاد إلى قابِس؛ ثم إنّ جماعة من أعيان إفريقية، من العرب وغيرهم، سألوا علياً في الصلح، فامتنع، ثم أجاب إلى ذلك، وتعاهد عليه.

ذكر الوحشة بين رجّار والأمير عليّ

كان رُجّار، صاحب صقلّية، بينه وبين الأمير عليّ، صاحب إفريقية، مودّة وكيدةٌ، إلى أن أعان رافعاً كما تقدّم قبلُ، فاستوحش كلٌّ منهما من صاحبه، ثم بعد ذلك خاطبه رجّار بما لم تجْرِ عادتهم به، فتأكّدت الوحشة، فأرسل رجّار رسالة فيها خشونة، فاحترز عليّ منه، وأمر بتجديد الأسطول، وإعداد الأهبة للقاء العدوْ، وكاتب المرابطين بمَرَّاكش في الاجتماع معه على الدخول إلى صقلّية، فكف رجّار عمّا كان يعتمده.

ذكر قتل صاحب حلب واستيلاء إيلغازي عليها

في هذه السنة قُتل لؤلؤ الخادم، وكان قد استولى على قلعة حلب وأعمالها، بعد وفاة الملك رضوان، ووَلِيَ أتابكيّة ولده ألب أرسلان، فلمّا مات أقام بعده في الملك سلطانشاهَ بن رضوان، وحكم في دولته أكثر من حكمه في دولة أخيه، فلمّا كانت هذه السنة سار منها إلى قلعة جَعْبَر ليجتمع بالأمير سالم بن مالك صاحبها، فلمّا كان عند قلعة نادر نزل يُريق الماء، فقصده جماعة من أصحابه الأتراك، وصاحوا: أرنب، أرنب! وأوهموا أنّهم يتصيّدون، ورموه بالنشّاب، فقُتل، فلمّا هلك [نهبوا] خزانته[١]، فخرج إليهم أهل حلب، فاستعادوا ما أخذوه[٢].

ووليَ أتابكيّةَ سلطانشاه بن رضوان شمس الخواصّ يارو قتاش، فبقي شهراً، وعزلوه؛ ووليَ بعده أبو المعالي بن الملحيّ الدمشقيُّ، ثم عزلوه وصادروه.

وقيل: كان سبب قتل لؤلؤ أنّه أراد قتل سلطانشاه، كما قتل أخاه ألب أرسلان قبله، ففطن به أصحاب سلطانشاه، فقتلوه؛ وقيل: كان قتله سنة عشر وخمسمائة، والله أعلم.

---

(١) في الباريسية: «عرائسه».

(٢) تاريخ حلب ٣٦٧ (٣٣)، ذيل تاريخ دمشق ١٩٨، زبدة الحلب ٢/ ١٧٧، ١٧٨، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٦٨، المختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٣٠، تاريخ الإسلام (حوادث ٥١١ هـ.) ص ٢٧٠، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٤، عيون التواريخ ١٢/ ٧٢.

ثمّ إنّ أهل حلب خافوا من الفرنج، فسلّموا البلد إلى نجم الدين إيلغازي، فلمّا تسلّمه لم يجد فيه مالاً، ولا ذخيرة، لأنّ الخادم كان قد فرّق الجميع، وكان الملك رضوان قد جمع فأكثر، فرزقه الله غير أولاده، فلمّا رأى إيلغازي خلوّ البلد من الأموال صادر جماعة من الخدم بمالٍ صانع به الفرنج، وهادنهم مُدّة يسيرة تكون بمقدار مسيره إلى ماردين، وجمْع العساكر والعود، فلمّا تمّت الهدنة سار إلى ماردين، على هذا العزم، واستخلف بحلب ابنَهُ حُسام الدين تمرتاش.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في رابع عشر صفر، انخسف القمر انخسافاً كلّيّاً.

وفي هذه الليلة هجم الفرنج على ربض حماة من الشام، وقتلوا من أهلها ما يزيد على مائة رجل وعادوا[١].

وفيها، في يوم عرفة، كانت زلزلة بالعراق، والجزيرة، وكثير من البلاد، وخربت ببغداذ دور كثيرة بالجانب الغربيّ[٢].

[الوفيات]

وفيها مات أحمد العربيُّ[٣] ببغداذ، وكان من عباد الله الصالحين، له كرامات، وقبره يزار بها.

وفي هذه السنة، في شوّال، توفّي أبو عليّ محمّد بن سعيد[٤] بن إبراهيم بن نَبْهَان الكاتب، وعُمره مائة سنة، وكان عالي الإسناد، روى عن أبي عليّ بن شاذان وغيره؛ والحسن بن أحمد بن جعفر أبو عبد الله الشقّاق الفَرَضيُّ، الحاسب، وكان

---

(١) مرآة الزمان ج ٨ ق ٦٩/١، المختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٣٠، تاريخ الإسلام ٢٦٩، الكواكب الدرّية ٨١.

(٢) تاريخ حلب ٣٦٨ (٣٤)، المنتظم ٩/ ١٩٣ (١٧/ ١٥٦)، التاريخ الباهر ٢٠، وفيه زلزلت إربل، ومثله في الروضتين ١/ ٧٠، مرآة الزمان ج ٨ ق ٦٨/١، تاريخ الإسلام ٢٦٩، البداية والنهاية ١٢/ ١٨٠، عيون التواريخ ١٢/ ٧٢، الكواكب الدرّية ٨١، النجوم الزاهرة ٥/ ٢١٣، تاريخ الخلفاء ٤٣٢، كشف الصلصلة ١٨٢، شذرات الذهب ٤/ ٣٠.

(٣) المنتظم ٩/ ١٩٣، ١٩٤، رقم ٣٢٨ (١٧/ ١٥٦ رقم ٣٨٥٠) وفيه: «أحمد القزويني»، تاريخ الإسلام (وفيات ٥١١ هـ.) ص ٣١٤ رقم ٤.

(٤) في طبعة صادر ١٠/ ٥٣٢ «سعد»، والمثبت من مصادر ترجمته التي حشدتها في تاريخ الإسلام (وفيات ٥١١ هـ.) ص ٣٢١ رقم ١٧.

واحد عصره في عِلم الفرائض والحساب، وسمع الحديث من أبي الحسين بن المهتدي، وغيره.

وفيها مات الكزايكس[1] ملك القسطنطينيّة[2]، وملك بعده ابنه يوحنّا، وسلك سيرته.

وفيها مات دوقس أنطاكية[3]، وكفى الله شرّه.

(١) في الباريسية: «الكراكس»، وفي بودليان «الكرالس»

(٢) ذيل تاريخ دمشق ١٩٩، تاريخ الإسلام (حوادث ٥١١ هـ.) ص ٢٧١.

(٣) ذيل تاريخ دمشق ١٩٩.

٥١٢
ثم دخلت سنة اثنتي عشرة وخمسمائة

ذكر ما فعله السلطان محمود بالعراق
وولاية البُرسقيّ شحنكيّة بغداذ

لمّا توفّي السلطان محمّد، وملك بعده ابنه محمود، ودبّر دولته الوزير الربيب أبو منصور، أرسل إلى الخليفة المستظهر بالله يطلب أن يخطب له ببغداذ، فخُطب له في الجمعة ثالث عشر المحرّم، وكان شحنة بغداذ بهروز.

ثم إنّ الأمير دُبَيْس بن صدقة كان عند السلطان محمّد، مذ قُتل والده، على ما ذكرناه، فأحسن إليه، وأقطعه إقطاعاً كثيراً، فلمّا توفّي السلطان محمّد خاطب السلطانَ محموداً في العود إلى بلده الحِلّة، فأذِن له في ذلك، فعاد إليها، فاجتمع عليه خلق كثير من العرب، والأكراد، وغيرهم، وكان آقسنقر البرسقيُّ مقيماً بالرَّحبة، وهي إقطاعه، وليس بيده من الولايات شيء، فاستخلف عليها ابنه عزّ الدين مسعود، وسار إلى السلطان محمّد، قبل موته، عازماً على مخاطبته في زيادة إقطاعه، فبلغه وفاة السلطان محمّد قبل وصوله إلى بغداذ.

وسمع مجاهد الدين بَهروز بقربه من بغداذ، فأرسل إليه يمنعه من دخولها، فسار إلى السلطان محمود، فلقيه توقيع السلطان بولاية شحنكيّة بغداذ، وهو بحُلوان، وعزل بهروز.

وكان الأمراء عند السلطان يريدون البرسقيَّ، ويتعصّبون له، ويكرهون مجاهد الدين بهروز، ويحسدونه (للقرب الذي كان له)[1] عند السلطان محمّد، وخافوا أن يزداد تقدّماً عند السلطان محمود وحكماً. فلمّا وليَ البرسقيُّ شحنكيّةَ بغداذ هرب بهروز إلى تكريت، وكانت له.

---

(١) في الأوربية: «القربه كان».

ثمّ إنّ السلطان ولّى شحنكيّة بغداذ الأمير منكوبرس، وهو من أكابر الأمراء، وقد حكم في دولة السلطان محمود، فلمّا أُعطي الشحنكيّة سيّر إليها ربيبه الأمير حسين بن أزبك، أحد الأمراء الأتراك، وهو صاحب أسداباذ، لينوب عنه ببغداذ والعراق، وفارق السلطان من باب همَذان، واتّصل به جماعة الأمراء البكجيّة وغيرهم.

فلمّا سمع البُرْسُقيُّ خاطب الخليفة المستظهر بالله ليأمره بالتوقّف إلى أن يكاتب السلطانَ، ويفعل ما يرد به الأمر عليه، فأرسل إليه الخليفة، فأجاب: إن يرسم الخليفة بالعود عُدْتُ، وإلاّ فلا بدّ من دخول بغداذ. فجمع البُرْسُقيُّ أصحابه وسار إليه، فالتقوا واقتتلوا، فقُتل أخٌ لحسين، وانهزم هو ومن معه، وعادوا إلى عسكر السلطان، فكان ذلك في شهر ربيع الأوّل، قبل وفاة المستظهر بالله بأيّام[١].

ذكر وفاة المستظهر بالله

في هذه السنة، سادس عشر شهر ربيع الآخر، توفّي المستظهر بالله أبو العبّاس أحمد بن المقتدي بأمر الله، وكان مرضه التراقي، وكان عمره إحدى وأربعين سنة وستّة أشهر وستّة أيّام، وخلافته أربعاً[٢] وعشرين سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً؛ ووزر له عميد الدولة أبو منصور بن جَهِير، وسديد المُلك أبو المعالي المفضّل بن عبد الرزّاق الأصبهانيُّ، وزعيم الرؤساء أبو القاسم بن جَهِير، ومجد الدين أبو المعالي هبة الله بن المطّلب، ونظام الدين أبو منصور الحسين بن محمّد؛ وناب عن الوزارة أمين الدولة أبو سعد بن الموصلايا، وقاضي القضاة أبو الحسن عليُّ بن الدمغانيّ، ومضى[٣]، في أيّام، ثلاثة سلاطين خُطب لهم بالحضرة، وهم: تاج الدولة تُتُش بن ألب أرسلان، والسلطان بركْيارُق، ومحمّد ابنا ملكشاه.

ومن غريب الاتّفاق أنّه لمّا توفّي السلطان ألب أرسلان توفّي بعده القائم بأمر الله، ولمّا توفّي السلطان ملكشاه توفّي بعده المقتدي بأمر الله، ولمّا توفّي السلطان محمّد توفّي بعده المستظهر بالله[٤].

---

(١) المختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٣٠، تاريخ الإسلام (حوادث ٥١٢ هـ.) ص ٢٧٣، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٤.

(٢) في الأوربية: «أربع».

(٣) في الأوربية: «ومضا».

(٤) انظر عن وفاة الخليفة المستظهر بالله في: تاريخ الإسلام (حوادث ٥١٢ هـ.) ص ٢٧٣ وفيه حشدت مصادر ترجمته. وانظر أيضاً (وفيات ٥١٢ هـ.) ص ٣٢٦ ـ ٣٢٨ رقم ٢٤.

ذكر بعض أخلاقه[1] وسيرته

كان، رضي الله عنه، ليّن الجانب، كريم الأخلاق، يحبّ اصطناع الناس، ويفعل الخير، ويسارع إلى أعمال البرّ والمثوبات، مشكور المساعي لا يردّ مكرمة تُطلب منه.

وكان كثير الوثوق بمن يولّيه، غير مصغ إلى سعاية ساعٍ، ولا ملتفت إلى قوله، ولم يُعرف منه تلوّن، وانحلال عزم، بأقوال أصحاب الأغراض.

وكانت أيّامه أيّامَ سرور للرعيّة، فكأنّها من حُسنها أعياد، وكان إذا بلغه ذلك فرح به وسرّه، وإذا تعرّض سلطان أو نائب له لأذى أحدٍ بالغ في إنكار ذلك والزجر عنه.

وكان حسن الخطّ، جيّد التوقيعات، لا يقاربه فيها أحد، يدلّ على فضلٍ غزير، وعلم واسع؛ ولمّا توفّي صلّى عليه ابنه المسترشد بالله، وكبّر أربعاً، ودُفن في حجرةٍ له كان يألفها.

ومن شِعره قوله:

أذابَ حَرُّ الهوَى في القَلبِ ما جَمَدَا[2] ... لـمّـا مـددتُ إلـى رَسْـمِ الـوَدَاعِ يَـدَا
وكَـيْـفَ أسـلُـكُ نَـهْـجَ الاصـطـبـارِ وقـد ... أرى طـرائـقَ فـي مَـهْـوَى الـهَـوى قِـدَدَا
قـد أخـلَـفَ الـوعـدَ بـدرٌ قـد شُـغِـفْـتُ بـهِ ... من بعد ما قَد وفى[3] دهرِي بما وعَدا
(إن كنتُ)[4] أنقضُ عهدَ الحبّ في خلَدي[5] ... مـن بـعـدِ هـذا[6] فـلا عـايـنـتُـه[7] أبَـدَا[8]

ذكر خلافة الإمام المسترشد بالله

لمّا توفّي المستظهر بالله بويع ولده المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن أبي العبّاس أحمد بن المستظهر بالله، وكان وليَّ عهد قد خُطب له ثلاثاً وعشرين سنة، فبايعه[9] أخواه ابنا المستظهر بالله، وهما أبو عبد الله محمّد، وأبو طالب العبّاس،

---

(١) في الأوربية: «الخلافة».
(٢) في الأوربية: «جمد».
(٣) في الأوربية: «وفا».
(٤) ساقطة من بودليان، والمثبت من الباريسية.
(٥) في بودليان: «جلدي».
(٦) في تاريخ الإسلام: «حبي».
(٧) في تاريخ الإسلام: «عاتبتكم».
(٨) الأبيات ما عدا الثالث في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥١٢ هـ.)، ص ٣٢٧.
(٩) في الأوربية: «فبايعاه».

وعمومته بنو المقتدي بأمر الله، وغيرهم من الأمراء، والقضاة، والأئمّة، والأعيان.

وكان المتولّي لأخذ البيعة القاضي أبو الحسن الدمغانيُّ، وكان نائباً عن الوزارة، فأقرّه المسترشد بالله عليها. ولم يأخذ البيعة قاضٍ غير هذا، وأحمد بن أبي داود، فإنّه أخذها للواثق بالله، والقاضي أبو عليّ إسماعيل بن إسحاق، أخذها للمعتضد بالله.

ثم إنّ المسترشد عزل قاضي القضاة عن نيابة الوزارة، واستوزر أبا شجاع محمّد بن الربيب أبي منصور، وزير السلطان محمود، وكان والده خطب في معنى ولده، حتّى استُوزر، وقبض على صاحب المخزن أبي طاهر يوسف بن أحمد الحُزّيّ[1].

ذكر هرب الأمير أبي الحسن أخي المسترشد وعوده

لمّا اشتغل الناس ببَيعة المسترشد بالله، ركب أخوه الأمير أبو الحسن بن المستظهر بالله سفينة، ومعه ثلاثة نفر، وانحدر إلى المدائن، وسار منها إلى دُبَيْس بن صدقة بالحِلّة، فكرّمه دُبيس، وعلم منه وفاة المستظهر بالله، وأقام له الإقامات الكثيرة، فلمّا علم المسترشد بالله خبره أهمّه ذلك وأقلقه، وأرسل إلى دُبيس يطلب منه إعادته، فأجاب بأنّني عبد الخليفة، وواقف عند أمره، ومع هذا، فقد استذمّ بي، ودخل منزلي، فلا أكرهه على أمرٍ أبداً.

وكان الرسول نقيب النقباء شرف الدين عليّ بن طراد الزينبيّ[2]، فقصد الأمير أبا الحسن، وتحدّث معه في عوده، وضمن له عن الخليفة كلّ ما[3] يريده، فأجاب إلى العود، وقال: إنّني لم أفارق أخي لشرّ أريده، وإنّما الخوف حملني على مفارقته، فإذا أمّنني قصدتُه. وتكفّل دُبيس بإصلاح الحال بنفسه، والمسير معه إلى بغداذ، فعاد النقيب وأعلم الخليفة الحال، فأجاب إلى ما طلبه منه.

ثم حدث من أمر البُرْسُقي ودُبيس ومنكوبرس ما ذكرناه، فتأخّر الحال.

وأقام الأمير أبو الحسن عند دُبَيْس إلى ثاني عشر صفر سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، ثم سار عن الحلّة إلى واسط، وكثُر جمعه[4] وقوي الإرجاف بقوّته، وملك مدينة واسط، وخيف جانبه، فتقدّم الخليفة المسترشد بالله بالخطبة لوليّ عهده ولده أبي

---

(١) هكذا في الأصل. وفي المنتظم ١٧/١٦٣: «الخرزي».

(٢) في الأوربية: «النرينبي».

(٣) في الأوربية: «كما».

(٤) في الأوربية: «جمع».

جعفر المنصور، وعمره حينئذٍ اثنتا[١] عشرة سنة، فخُطب له ثاني ربيع الآخر ببغداذ، وكتب إلى البلاد بالخطبة له، وأرسل إلى دُبَيْس بن مَزْيد في معنى الأمير أبي الحسن، وأنّه الآن قد فارق جواره، ومدّ يده إلى بلاد الخليفة وما يتعلّق به، وأمره بقصده ومعاجلته قبل قوّته؛ فأرسل دُبَيْس العساكر إليه، ففارق واسط، وقد تحيّر هو وأصحابه، فضلّوا الطريق، ووصلت عساكر دُبَيْس، فصادفوهم عند الصُّلْح، فنهبوا أثقاله، وهرب الأكراد من أصحابه، والأتراك، وعاد الباقون إلى دُبَيْس.

وبقي الأمير أبو الحسن في عشرة من أصحابه وهو عطشان، وبينه وبين الماء خمسة فراسخ، وكان الزمان قيظاً، فأيقن بالتلف، وتبعه بدويّان، فأراد الهرب منهما، فلم يقدر، فأخذاه وقد اشتدّ به العطش، فسقياه، وحملاه إلى دُبَيْس، فسيّره إلى بغداذ، وحمله إلى الخليفة، بعد أن بذل له عشرين ألف دينار، فحُمل إلى الدار العزيزة، وكان بين خروجه عنها وعوده إليها أحد عشر شهراً.

ولمّا دخل على المسترشد بالله قبّل قدمَه، وقبّله المسترشد، وبكيا، وأنزله داراً حسنة كان هو يسكنها قبل أن يلي الخلافة، وحمل إليه الخِلع، والتحف الكثيرة، وطيّب نفسه وأمَّنه.

ذكر مسير الملك مسعود وجيوش بك إلى العراق وما كان بينهما وبين البُرسقيّ ودُبَيْس

في هذه السنة، في جمادى الأولى، برز البُرْسُقيُّ، ونزل بأسفل الرَّقّةِ في عسكره ومَن معه، وأظهر أنّه على قصد الحِلّة وإجلاء دُبَيْس بن صدقة عنها.

وجمع دُبَيْس جموعاً كثيرة في العرب والأكراد، وفرق الأموال الكثيرة والسلاح.

وكان الملك مسعود ابن السلطان محمّد بالموصِل مع أتابكه أي أبه[٢] جيوش بك، فأشار عليهما جماعة ممّن عندهما بقصد العراق فإنّه لا مانع دونه، فسارا في جيوش كثيرة، ومع الملك مسعود وزيره فخر المُلك أبو عليّ بن عمّار، صاحب طرابلس، وقسيم الدولة زنكي بن آقسنقَر جدّ ملوكنا الآن بالموصِل، وكان من الشجاعة في الغاية، ومعهم أيضاً صاحب سِنجار، وأبو الهيجاء، صاحب إربل، وكرباوي بن خراسان التركمانيُّ، صاحب البوازيج. فلمّا علم البرسقيُّ قربهم خافهم.

---

(١) في الأوربية: «اثنتي».
(٢) في بودليان: «أي أبه»، وفي الباريسية: «أزبه».

وكان البُرسُقيُّ قديماً قد جعله السلطان محمّد أتابك ولده مسعود، على ما ذكرناه، وإنّما كان خوفه من جيوش بك، فلمّا قاربوا بغداذ سار إليهم ليقاتلهم ويصدّهم، فلمّا علم مسعود وجيوش بك ذلك أرسلا إليه الأمير كرباوي في الصلح، وأعلمه أنّهم إنّما جاءوا نجدةً له على دُبَيْس، واصطلحوا، وتعاهدوا، واجتمعوا.

ووصل مسعود إلى بغداذ، ونزل بدار المملكة، ووصلهم الخبر بوصول الأمير عماد الدين منكُبرس، المقدّم ذكره، في جيش كثير، فسار البُرْسُقيُّ عن بغداذ نحوه ليحاربه ويمنعه عنها، فلمّا علم به منكبرس قصد النُّعمانيّة، وعبر دجلة هناك، واجتمع هو ودُبَيْس بن صدقة.

وكان دُبَيْس قد خاف من الملك مسعود والبرسُقيّ، فبنى أمره على المحاجزة والملاطفة، فأهدى لمسعود هدية حسنة، وللبرسقيّ، وجيوش بك، فلمّا وصله خبر وصول منكبرس راسله، واستماله، واستحلفه، واتّفقا على التعاضد والتناصر، واجتمعا، وكلّ واحد منهما قوي بصاحبه، فلمّا اجتمعا سار الملك مسعود، والبرسقيُّ، وجيوش بك، ومَن معهم، إلى المدائن للقاء دُبَيْس ومنكبرس، فلمّا وصلوا المدائن أتتهم الأخبار بكثرة الجمع معهما، فعاد البرسقيّ، والملك مسعود، وعبرا نهر صرصر، وحفظا المخاضات عليه، ونهبت الطائفتان السواد نهباً فاحشاً: نهر الملك، ونهر صَرْصَر، ونهر عيسى، وبعض دُجَيْل، واستباحوا النساء.

فأرسل المسترشد بالله إلى الملك مسعود والبرسقيّ ينكر هذه الحال، ويأمرهما بحقن الدماء، وترْك الفساد، ويأمر بالموادعة والمصالحة، وكان الرسل: سديد الدولة بن الأنباريّ، والإمام الأسعد المِيهنيّ، مدرّس النظاميّة، فأنكر البرسقيُّ أن يكون جرى منهما شيء من ذلك، وأجاب إلى العَود إلى بغداذ، فوصل من أخبره أنّ منكبرس ودُبَيْساً قد جهّزا ثلاثة آلاف فارس مع منصور أخي دُبَيْس، والأمير حسين بن أزبك، ربيب منكبرس، وسيّروهم، وعبروا[(١)] عند دَرزِيجَان ليقطعوا مخاضة عند دَيَالى إلى بغداذ، لخلوّها من عسكر يحميها ويمنع عنها.

فعاد البرسقيُّ إلى بغداذ، وعبر الجسر لئلاّ يخاف الناس، ولم يعلموا الخبر، وخلّف ابنه عزّ الدين مسعوداً[(٢)] على عسكره بصَرْصَر، واستصحب معه عماد الدين زنكي بن آقسنقَر، فوصل إلى دَيَالى، ومنع عسكر منكبرس من العبور، فأقام يومَيْن،

---

(١) في الأوربية: «وسيراه، وعبر».

(٢) في الأوربية: «مسعود».

فأتاه كتاب ابنه عزّ الدين مسعود يخبره أنّ الصلح قد استقرّ بين الفريقَيْن، فانكسر نشاطه، حيث جرى هذا الأمر ولم يعلم به، وعاد نحو بغداذ، وعبر إلى الجانب الغربي، وعبر منصور وحسين فسارا في عسكرهما خلفه، فوصلا[1] بغداذ عند نصف الليل، فنزلا عند جامع السلطان.

وسار البرسقيّ إلى الملك مسعود فأخذ بَركه ومالَه وعاد إلى بغداذ، فخيّم عند القنطرة العتيقة، وأصعد الملك مسعود، وجيوش بك، فنزلا عند البِيمارستان، وأصعد دُبَيْس ومنكبرس فخيّما تحت الرَّقّة، وأقام عزّ الدين مسعود بن البرسقيّ عند منكبرس منفرداً عن أبيه.

وكان سبب هذا الصلح أنّ جيوش بك قد أرسل إلى السلطان محمود يطلب الزيادة له وللملك مسعود، فوصل كتاب الرسول من العسكر يذكر أنّه لقي من السلطان إحساناً كثيراً، وأنّه أقطعهما[2] أذربيجان، فلمّا بلغه رحيلهما[3] إلى بغداذ اعتقد أنّهما قد عَصَيَا[4] عليه، فعاد عمّا كان استقرّ، ويقول إنّ السلطان قد جهّز عسكراً إلى الموصل. فوقع الكتاب بيد منكبرس، فأرسله إلى جيوش بك، وضمن له إصلاح السلطان له وللملك مسعود، وكان منكبرس متزوّجاً بأمّ الملك مسعود، واسمها سَرجهان، وكان يؤثر مصلحته لذلك، واستقرّ الصلح، وخافا من البرسقيّ أن يمنع منه، فاتّفقا على إرسال العسكر إلى دَرْزِيجَانَ لينفذ في مقابلته البرسقيّ ليخلو العسكر منه، ويقع الاتّفاق، فكان الأمر في مسيره على ما تقدّم.

وكان البرسقيُّ محبوباً لدى أهل بغداذ لحسن سيرته فيهم، فلمّا استقرّ الصلح، ووصلوا إلى بغداذ، تفرّق عن البرسقيّ أصحابه وجموعه، وبطل ما كان يحدّث به نفسه من التغلّب على العراق بغير أمر السلطان، وسار عن العراق إلى الملك مسعود، فأقام معه، واستقرّ منكُبرس في شِحنكيّة بغداذ، وودّعه دُبَيْس بن صدقة، وعادِ إلى الحِلّة، بعد أن طالب بدار أبيه بدرب فيروز، وكانت قد دخلت في جامع القصر ببغداذ، فصولح عنها بمال.

وأقام منكُبرس ببغداذ يظلم، ويعسف الرعيّة، ويصادرهم، فاختفى أرباب

---

(١) في الأوربية: «فوصلوا».
(٢) في الأوربية: «قطعهم».
(٣) في الأوربية: «رحيلكم».
(٤) في الأوربية: «أنكم قد عصيتم».

الأموال، وانتقل جماعة إلى حريم دار الخلافة خوفاً منه، وبطلت معايش الناس، وأكثر أصحابه الفساد، حتّى إنّ بعض أهل بغداذ زُفّت إليه امرأة تزوّجها، فعلم بعض أصحاب منكُبرس، فأتاه وكسر الباب وجرح الزوج عدّة جِراحات، وابتنى بزوجته، فكثر الدعاء ليلاً ونهاراً، واستغاث الناس لهذه الحال، وأغلقوا الأسواق، فأُخذ الجنديّ إلى دار الخلافة فاعتُقل أيّاماً ثم أُطلق.

وسمع السلطان بما يفعله منكبرس ببغداذ، فأرسل إليه يستدعيه، ويحثّه على اللحوق به، وهو يغالط ويدافع، وكلّما طلبه السلطان لجّ في جمع الأموال والمصادرات. فلمّا علم أهل بغداذ تغيُّر[1] السلطان عليه، واستدعاءه إيّاه، طمعوا فيه، فسار حينئذٍ منكبرس عنهم خوفاً أن يثوروا به، وكفى الناس شرّه، وظهر من كان مستتراً.

ذكر وفاة ملك الفرنج وما كان بين الفرنج وبين المسلمين

في ذي الحجّة من سنة إحدىٰ عشرة وخمسمائة توفّي بغدُوين ملك القدس[2]، وكان قد سار إلى ديار مصر في جمع الفرنج، قاصداً ملكها والتغلّب عليها، وقوي طمعه في الديار المصريّة، وبلغ مقابل تِنّيس، وسبح في النيل، فانتقض جرح كان به، فلمّا أحسّ بالموت عاد إلى القدس، فمات، ووصّى ببلاده للقمّص صاحب الرُّها، وهو الذي كان أسره جَكَرمِش، وأطلقه جاولي سقاوو، واتّفق أنّ هذا القمّص كان قد سار إلى القدس يزور بِيعة قُمامَةَ، فلمّا وصّى إليه بالملك قبله، واجتمع له القدس والرُّها.

وكان أتابك طُغتِكين قد سار عن دمشق لقتال الفرنج، فنزل بين دَيْر أيّوب وكفَر بَصَل[3] باليَرْموك، فخفيت عنه وفاة بغدوين، حتّى سمع الخبر بعد ثمانية عشر يوماً، وبينهم نحو يومَيْن، فأتته رسل ملك الفرنج يطلب المهادنة، فاقترح عليه طغتِكين ترك المناصفة التي بينهم من (جبل عَوف، والحَنّانَة)[4]، والصَّلْت[5]، والغَور، فلم يُجب

---

(١) في الأوربية: «تغثير».

(٢) تاريخ حلب ٣٦٨ (٣٣)، ذيل تاريخ دمشق ١٩٩، دول الإسلام٢/٣٨، تاريخ الإسلام (حوادث ٥١١ هـ.) ص ٢٧٠، الدرّة المضية ٤٨٠، الكواكب الدرّية ٨٢، إتعاظ الحنفا ٣/٥٦، شذرات الذهب ٤/٣٠.

(٣) في الباريسية: «كفربصل»، والمثبت من بودليان.

(٤) في الباريسية: «الحنانه»، وفي بودليان: «حبل عوف والحمانه».

(٥) في بودليان: «الصلب».

إلى ذلك، وأظهر القوّة، فسار طغتكين إلى طَبريّة فنهبها وما حولها، وسار منها نحو عَسْقَلان.

وكانت للمصريّين وبها عساكرهم، كانوا قد سيّروها لمّا عاد ملك القدس المتوفّى عن مصر، وكانوا سبعة آلاف فارس، فاجتمع بهم طغتكين، وأعلمه المقدّم عليهم أنّ صاحبهم تقدّم إليه بالوقوف عند رأي طُغتِكين، والتصرّف على ما يحكم به، فأقاموا بعَسْقَلان نحو شهرَيْن، ولم يؤثّروا في الفرنج أثراً، فعاد طُغتِكين إلى دمشق، فأتاه الصريخ بأنّ مائة وثلاثين فارساً من الفرنج أخذوا حصناً من أعماله يُعرف بالحبس، يُعرف بحصن جَلْدَك، سلّمه إليهم المستحفظ به وقصدوا أذْرِعات فنهبوها، فأرسل إليهم تاج الملوك بوري بن طُغتِكين، فانحازوا عنه إلى جبل هناك، فنازلهم، فأتاه أبوه ونهاه عنهم، فلم يفعل، وطمع فيهم، فلمّا أيِس الفرنج قاتلوا قتال مُسْتقتل، فنزلوا من الجبل وحملوا على المسلمين حملة صادقة هزموهم بها، وأسروا وقتلوا خلقاً كثيراً، وعاد الفلّ إلى دمشق على أسوإ حال.

فسار طُغتِكين إلى حلب، وبها إيلغازي، فاستنجده، وطلب منه التعاضد على الفرنج، فوعده بالمسير معه، فبينما هو بحلب أتاه الخبر بأنّ الفرنج قصدوا حَوْران من أعمال دمشق، فنهبوا وقتلوا وسبوا وعادوا، فاتّفق رأي طُغتِكين وإيلغازي (على عَود طُغتكين إلى دمشق، وحماية بلاده، وعود إيلغازي)[1] إلى ماردين، وجَمْع العساكر، والاجتماع على حرب الفرنج، فصالح إيلغازي مَن يليه من الفرنج على ما تقدّم ذكره، وعبر إلى ماردِين لجمع العساكر، وكان ما نذكره سنة ثلاث عشرة [وخمسمائة]، إن شاء الله تعالىٰ.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة انقطع الغيث، وعُدمت الغلاّت في كثير من البلاد، وكان أشدّه بالعراق، فغلت الأسعار، وأجلى أهل السواد، وتقوّت الناس بالنخالة، وعظُم الأمر على أهل بغداذ بما كان يفعله منكُبرِس بهم.

وفيها أسقط المسترشد بالله من الإقطاع المختصّ به كلّ جَور، وأمر أن لا يؤخذ إلاّ ما جرت به العادة القديمة، وأطلق ضمان غزل الذهب، وكان صنّاع السِّقْلاطون، والممزّج، وغيرهم ممّن يعمل منه، يلقون شدّة من العمّال عليها، وأذًى عظيماً.

(١) من الباريسية.

وفيها تأخّر مسير الحُجّاج تأخّراً أُرجف بسببه بانقطاع الحجّ من العراق، فرتّب الخليفة الأمير نَظَر، خادم أمير الجيوش يُمن، وولاّه من أمر الحجّ ما كان يتولاّه أمير الجيوش، وأعطاه من المال ما يحتاج إليه في طريقه، وسيّره، فأدركوا الحجّ وظهرت كفاية نظر[(١)].

وفيها وصل مركبان كبيران فيهما قوّة ونجدة للفرنج بالشام، فغرقا، وكان الناس قد خافوا ممّن فيهما.

وفيها وصل رسول إيلغازي، صاحب حلب وماردين، إلى بغداذ يستنفر على الفرنج، ويذكر ما فعلوا بالمسلمين في الديار الجزريّة، وأنّهم ملكوا قلعة عند الرُّها، وقتلوا أميرها ابن عُطَيْر، فسُيّرت الكتب بذلك إلى السلطان محمود.

وفيها نُقل المستظهر إلى الرُّصافة، وجميع من كان مدفوناً بدار الخلافة، وفيهم جدّة المستظهر أمّ المقتدي، وكانت وفاتها بعد المستظهر، ورأت البطن الرابع من أولادها.

وفيها كثُر أمر العيّارين بالجانب الغربيّ من بغداذ، فعبر إليهم نائب الشُّحنة في خمسين غلاماً أتراكاً، فقاتلهم، فانهزم منهم، ثم عبر إليهم من الغد في مائتَيْ غلام، فلم يظفر بهم، ونهب العيّارون يومئذ قُطُفْتا.

[الوفيات]

وفي هذه السنة، في شعبان، توفّي أبو الفضل بكر بن محمّد[(٢)] بن عليّ بن الفضل الأنصاريُّ من ولد جابر بن عبد الله، وهو من بلد بخارى، وكان من أعيان الفقهاء الحنفيّة، حافظاً للمذهب.

وتوفّي أبو طالب الحسين بن محمّد بن عليّ بن الحسن الزينبيُّ[(٣)]، نقيب النقباء ببغداذ، في صفر، واستقال من النقابة، فوليها أخوه طِراد، وكان من أكابر الحنفيّة، وروى الحديث الكثير.

---

(١) المنتظم ٩/ ١٩٩ (١٧/ ١٦٤).

(٢) انظر عن (بكر بن محمد) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥١٢ هـ.)، ص ٣٢٩، ٣٣٢ رقم ٢٨ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٣) انظر عن (الزينبي) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥١٢ هـ.) ص ٣٣٢، ٣٣٣ رقم ٣٠ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

وفيها، في ذي الحجّة، توفّي أبو زكريّاء يحيى بن عبد الوهّاب بن مَنْدة[1] الأصبهانيُّ، المحدّث المشهور من بيت الحديث، وله فيه تصانيف حسنة.

وفيها توفّي أبو الفضل أحمد بن الخازن[2]، وكان أديباً، ظريفاً، له شعر حسن، فمنه قوله، وقد قصد زيارة صديق له، فلم يره، فأدخله غلمانه إلى بستان في الدار، وحمّام، فقال في ذلك:

وافَيْتُ مَنزِلَهُ فلم أرَ صاحباً ... إلاّ تلقّاني بوَجهٍ ضاحكِ
والبِشرُ في وَجْهِ الغُلامِ نتيجةٌ ... لمُقَدِّماتِ ضياء وجهِ المالكِ
ودخلتُ جنّتَهُ وزُرت جَحيمَهُ ... فشكرتُ رِضواناً ورأفةَ مالكِ

---

(١) انظر عن (ابن منده) في: المنتظم ١٧/ ١٦٩، ١٧٠ رقم ٣٨٧٦، وتذكرة الحفاظ ٤/ ٢٥٠ وفيه وفاته سنة ٥١١ هـ.

(٢) انظر عن (ابن الخازن) في: المنتظم ١٧/ ١٧٠ رقم ٣٨٧٧، والبداية والنهاية ١٢/ ١٨٣.

٥١٣
ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وخمسمائة

ذكر عصيان الملك طُغرل على أخيه السلطان محمود

كان الملك طُغرل بن محمّد لمّا توفّي والده بقلعة سَرْجَهَانَ، وكان مولده سنة ثلاثٍ وخمسمائة في المحرّم، وأقطعه والده، سنة أربع، ساوةَ وآوةَ وزَنْجَانَ، وجعل أتابكه الأمير شيركير الذي تقدم ذكره في حصار قلاع الإسماعيليّة، فازداد مُلك طُغرل بما فتحه شيركير من قلاعهم، فأرسل إليهم السلطان محمود الأمير كنتغدي ليكون أتابكاً له، ومدبّراً لأمره، ويحمله إليه، فلمّا وصل إليه حسّن له مخالفة أخيه، وترْك المجيء إليه، واتّفقا على ذلك.

وسمع السلطان محمود الخبر، فأرسل شرف الدين أنوشروان بن خالد، ومعه خِلَع وتُحَف وثلاثون ألف دينار، ووعد أخاه بإقطاع كثير، زيادة على ما له، إذا قصده، واجتمع به، فلم تقع الإجابة إلى الاجتماع، وأجاب كنتغدي (بأننا في طاعة)[1] السلطان، وأيّ جهة أراد قصدناها، ومعنا من العساكر ما نقاوم بها من يرسم بقصده.

فبينما الخوض معهم في ذلك ركب السلطان محمود من باب همَذان في عشرة آلاف فارس، جريدة، في جمادى الأولى، وكتم مقصده، وعزم على أن يكبس أخاه، والأمير كنتغدي، فرأى أحد خواصّه تركيّاً من أصحاب الملك طُغرل، فأعلم السلطان به، فقبض عليه، فعلم رفيق كان معه الحال، فسار عشرين فرسخاً في ليلة، ووصل إلى الأمير كنتغدي، وهو سكران، فأيقظه بعد جهد، وأعلمه الحال، فقصد الملك طُغرل، فعرّفه ذلك، وأخذه متخفّياً، وقصد قلعة سَمِيران[2]، فضلاً عن الطريق إلى قلعة

(١) في نسخة بودليان والباريسية: «نائباً عن السلطان».

(٢) تحرّفت في الباريسية إلى «شميران»، وفي بودليان: «شهيران».

سَرْجَهان، وكانا قد فارقاها، وجمعا العساكر، وكان ضلالهما هدايةً لهما إلى السلامة، فإنّ السلطان محموداً[1] جعل طريقه على سَمِيران، وقال: إنّها حصنهما الذي فيه الذخائر والأموال، وإذا علما بوصوله إليهما سارا إليها، فربّما صادفهما في الطريق، فسلما منه بما ظنّاه عَطَباً لهما.

ووصل السلطان إلى العسكر، فكبسه، ونهبه، وأخذ من خزانة أخيه ثلاثمائة ألف دينار، وذلك المال الذي أنفذه له، وأقام السلطان محمود بزَنْجَان، وتوجّه منها إلى الرَّيّ؛ ونزل طُغرل من سَرجَهان، ولحِق هو وكنتغدي بكَنْجَة وقصده أصحابه، فقويت شوكته، وتمكّنت الوحشة بينه وبين أخيه محمود.

ذكر الحرب بين سَنجَر والسلطان محمود

في هذه السنة، في جُمادى الأولى، كانت حرب شديدة بين سَنجَر وابن أخيه السلطان محمود، ونحن نذكر سياقة ذلك:

قد ذكرنا سنة ثمانٍ وخمسمائة مسير السلطان سَنجَر إلى غَزْنَة، وفتحها وما كان منه فيها، ثم عاد عنها إلى خُراسان، فلمّا بلغه وفاة أخيه السلطان محمّد، وجلوس ولده السلطان محمود في السلطنة، وهو زوج ابنة سنجَر، لحِقه حزن عظيم لموت أخيه، وأظهر من الجزع والحزن ما لم يُسمع بمثله، وجلس للعزاء على الرماد، وأغلق البلد سبعة أيّام، وتقدّم إلى الخطباء بذكر السلطان محمّد بمحاسن أعماله من قتال الباطنيّة، وإطلاق المكوس، وغير ذلك.

وكان سنجَر يلقّب بناصر الدين، فلمّا توفّي أخوه محمّد تلقّب بمعزّ الدين، وهو لقب أبيه ملكشاه، وعزم على قصد بلد الجبال والعراق وما بيد محمود ابن أخيه، فندم على قَتْل وزيره أبي جعفر محمّد بن فخر المُلك أبي المظفّر بن نظام المُلك.

وكان سبب قتله أنّه وحّش الأمراء، واستخفّ بهم، فأبغضوه وكرهوه، وشكوا منه إلى السلطان، وهو بغَزْنَة، فأعلمهم أنّه يؤثر قتله، وليس يمكنه فعل ذلك بغَزنة.

وكان سنجر قد تغيّر على وزيره لأسباب، منها: أنّه أشار عليه بقصد غَزْنَة، فلمّا وصل إلى بُست أرسل إلى أرسلانشاه صاحبها إلى الوزير، وضمن له خمسمائة ألف دينار ليَثْني سنجَر عن قصده، فأشار عليه بمصالحته والعود عنه، وفعل مثل ذلك بما وراء النهر.

---

(١) في الأوربية: «محمود».

ومنها: أنّه نُقل عنه أنّه أخذ من غَزنة أموالاً جليلة عظيمة المقدار.

ومنها: ما ذُكر من إيحاشه الأمراء وغير هذه الأسباب.

فلمّا عاد إلى بَلْخ قبض عليه، وقتله وأخذ ماله، وكان له من الجواهر والأموال ما لا حدّ عليه، والذي وُجد له من العين ألفا ألف دينار، فلمّا قتله استوزر بعده شهاب الإسلام عبد الرزّاق ابن أخي نظام المُلك، ويُعرف بابن الفقيه، إلاّ أنّه لم تكن له منزلة ابن فخر المُلك عند الناس في عُلُوّ المنزلة. فلمّا اتّصل به وفاة أخيه ندم على قتله لأنّه كان يبلغ به من الأغراض والملك ما لا يبلغه بكثرة العساكر لميل الناس إليه، ومحلّه عندهم.

ثم إنّ السلطان محموداً[1] أرسل إلى عمّه سنجَر شرفَ الدين أنوشروان بن خالد وفخر الدين طُغايرك بن اليزن[2]، ومعهما الهدايا والتُّحف، وبذل له النزول عن مازَنْدران، وحَمْل مائتَيْ ألف دينار كلّ سنة، فوصلا إليه وأبلغاه الرسالة، فتجهّز ليسير إلى الرَّيّ، فأشار عليه شرف الدين أنوشروان بترك القتال والحرب، فكان جوابه في ذلك: أنّ ولد أخي صبيّ، وقد تحكّم عليه وزيره والحاجب عليّ.

فلمّا سمع السلطان محمود بمسير عمّه نحوه، ووصول الأمير أُنَر في مقدّمته إلى جُرجان، تقدّم إلى الأمير عليّ بن عمر، وهو أمير حاجب السلطان محمّد، وبعده صار أمير حاجب السلطان محمود، بالمسير، وضمّ[3] إليه جمعاً كثيراً من العساكر والأمراء، فاجتمعوا في عشرة آلاف فارس، فساروا إلى أن قاربوا مقدّمة سنجَر التي عليها الأمير أُنَر، فراسله الأمير عليُّ بن عمر يعرّفه وصيّة السلطان محمّد بتعظيم سنجَر والرجوع إلى أمره ونهيه، والقبول منه، وأنّه ظنّ أنّ سنجَر يحفظ السلطنة على ولده السلطان محمود، وأخذ علينا بذلك العهود، فليس لنا أن نخالفه، وحيث جئتم إلى بلادنا لا نحتمل ذلك، ولا نغضي[4] عليه، وقد علمتُ أنّ معك خمسة آلاف فارس، فأنا أرسل إليك أقلّ منهم لتعلّم أنّكم لا تقاومونا، ولا تقوون بنا.

فلمّا سمع الأمير أُنَر ذلك عاد عن جُرْجان، ولحِقه بعض عسكر السُّلطان محمود، فأخذوا قطعة من سواده، وأسروا عدّة من أصحابه.

---

(١) في الأوربية: «محمود».

(٢) في الباريسية: «النـرن»، وفي بودليان: «البزن».

(٣) في الأوربية: «وضمن».

(٤) في الأوربية: «نفضي».

وكان السلطان محمود قد وصل إلى الريّ، وهو بها، وعاد الأمير عليُّ بن عمر إليه، فشكره على فِعله، وأثنى عليه وعلى عسكره الذين معه.

وأشير على السلطان محمود بملازمة الرَّيّ، والمقام بها.

وقيل: إنّ عساكر خُراسان إذا علموا بمقامك فيها لا يفارقون حدودهم، ولا يتعدّون ولايتهم. فلم يقبلْ ذلك وضجر [من] المقام[1]، وسار إلى جُرجَان.

ووصل السلطان محمود والأميرُ منكبرس من العراق في عشرة آلاف فارس، والأمير منصور بن صدقة أخو دُبَيْس، والأمراء البكجيّة، وغيرهم، وسار محمود إلى همَذان، وتوفّي بها وزيره الربيب، واستوزر أبا طالب السميرميَّ، وبلغه وصول عمّه سنجَر إلى الريّ، فسار نحوه قاصداً قتاله، فالتقيا بالقرب من ساوة ثاني جمادى الأولى من السنة، وكان عسكر السلطان محمود قد عرفوا المفازة التي بين يدَيْ عسكر سنجَر، وهي ثمانية أيّام، فسبقوهم إلى الماء وملكوه عليهم.

وكان العسكر الخُراسانيُّ في عشرين ألفاً، ومعهم ثمانية عشر فيلاً اسم كبيرها باذهو، ومن الأمراء الكبار: ولد الأمير أبي الفضل، صاحب سِجِستان، وخُوارِزمشاه محمّد، والأمير أُنَر، والأمير قماج، واتّصل به علاء الدولة كرشاسِف بن فرامرز بن كاكوَيْه، صاحب يزد، وهو صهر السلطان محمّد وسنجَر على أختهما، وكان أخصّ الناس بالسلطان محمّد، فلمّا تولّى السلطان محمود تأخّر[2] عنه، فأقطع بلده لقراجة الساقي الذي صار صاحب بلاد فارس، فسار حينئذٍ علاء الدولة إلى سنجَر، وهو من ملوك الديلم، وعرّف سنجَر الأحوال، والطريق إلى قصد البلاد، وما فعله الأمراء من أخذ الأموال، وما هم عليه من اختلاف الأهواء، وحسّن قصد البلاد.

وكان عسكر السلطان محمود ثلاثين ألفاً، ومن الأمراء الكبار: الأمير عليُّ بن عمر، أمير حاجب، والأمبر منكبُرس، وأتابكه غزغلي، وبنو بُرسق، وسُنقر البخاريُّ، وقراجة الساقي، ومعه تسعمائة حمل من السلاح.

واستهان عسكر محمود بعسكر عمّه بكثرتهم وشجاعتهم، وكثرة خيلهم، فلمّا التقوا ضعُفت نفوس الخُراسانيّة لما رأوا لهذا العسكر من القوّة والكثرة، فانهزمت ميمنة سنجَر وميسرته، واختلط أصحابه، واضطرّب أمرهم، وساروا منهزمين لا يلوون على شيء، ونُهب من أثقالهم شيء كثير، وقتل أهل السواد كثيراً منهم.

---

(١) في الأوربية: «مقام».

(٢) في الأوربية: «فتأخّر».

ووقف سنجَر بين الفِيَلة في جمْع من أصحابه، وبإزائه السلطان محمود، ومعه أتابكه غزغلي، فألجأت سنجَرَ الضرورة، عند تعاظُم الخَطْب عليه، أن يقدّم الفِيَلة للحرب، وكان من بقي معه قد أشاروا عليه بالهزيمة، فقال: إما النصر أو القتل، وأمّا الهزيمة فلا. فلمّا تقدّمت الفِيَلة، ورآها خيل محمود، تراجعت بأصحابها على أعقابها، فأشفق سنجَر على السلطان محمود في تلك الحال، وقال لأصحابه: لا تُفزِعوا الصبيَّ بحملات الفِيَلة؛ فكفّوها عنهم، وانهزم السلطان محمود ومن معه في القلب، وأُسر أتابكه غزغلي، فكان يكاتبُ السلطانَ، ويعده أنّه يحمل إليه ابن أخيه، فعاتبه على ذلك، فاعتذر بالعجز، فقتله، وكان ظالماً قد بالغ في ظلم أهل همذان، فعجّل الله عقوبته.

ولمّا تمّ النصر والظفر للسلطان سنجَر أرسل من أعاد المنهزمين من أصحابه إليه، ووصل الخبر إلى بغداذ في عشرة أيّام، فأرسل الأمير دُبَيْس بن صدقة إلى المسترشد بالله في الخطبة للسلطان سنجَر، فخُطب له في السادس والعشرين من جُمادى الأولى، وقُطعت خطبة السلطان محمود.

وأمّا السلطان محمود، فإنّه سار من الكسرة إلى أصبهان، ومعه وزيره أبو طالب السميرميُّ، والأمير عليُّ بن عمر، وقراجة.

وأمّا سنجَر فإنّه سار إلى همَذان، فرأى قلّة عسكره، واجتماع العساكر على ابن أخيه، فراسله في الصلح، وكانت والدته تشير عليه بذلك، وتقول: قد استوليتَ على غزنة وأعمالها، وما وراء النهر، وملكتَ ما لا حدّ عليه، وقرّرتَ الجميع على أصحابه، فاجعل ولد أخيك كأحدهم.

وكانت والدة سنجَر هي جدّة السلطان محمود، فأجاب إلى قولها، ثم كثُرت العساكر عند سنجَر منهم البرسقيُّ، وكان عند الملك مسعود بأذربيجان من حين خروجه عن بغداذ إلى هذه الغاية، فقوي بهم. فعاد الرسول وأبلغه عن الأمراء الذين مع السلطان محمود أنّهم لا يصالحونه حتّى يعود إلى خُراسان، فلم يُجِبْ إلى ذلك، وسار من همَذان إلى كَرَج، وأعاد مراسلة السلطان محمود في الصلح، ووعده أن يجعله وليَّ عهده، فأجاب إلى ذلك، واستقرّ الأمر بينهما، وتحالفا عليه.

وسار السلطان محمود إلى عمّه سنجَر في شعبان، فنزل على جدّته والدة سنجَر، وأكرمه عمّه، وبالغ في ذلك، وحمل له السلطان محمود هدية عظيمة، فقبِلها ظاهراً، وردّها باطناً، ولم تُقْبلْ منه سوى خمسة أفراس عربيّة، وكتب السلطان سنجَر إلى سائر

الأعمال التي بيده كخُراسان وغَزنة، وما وراء النهر، وغيرها من الولايات، بأن يخطب للسلطان محمود بعده، وكتب إلى بغداذ مثل ذلك، وأعاد عليه جميع ما أخذ من البلاد سوى الرَّيّ، وقصد بأخْذها أن تكون له في هذه الديار لئلاّ يحدّث السلطان محمود نفسه بالخروج[1].

ذكر غزاة إيلغازي بلاد الفرنج

في هذه السنة سار الفرنج من بلادهم إلى نواحي حلب، فملكوا بُزاعة وغيرها، وخرّبوا بلد حلب ونازلوها، ولم يكن بحلب من الذخائر ما يكفيها شهراً واحداً، وخافهم أهلها خوفاً شديداً، ولو مُكّنوا من القتال لم يبقَ بها أحد، لكنّهم مُنعوا من ذلك؛ وصانَعَ[2] الفرنج أهل حلب على أن يقاسموهم[3] على أملاكهم التي بباب حلب. فأرسل أهل البلد إلى بغداذ يستغيثون، ويطلبون النجدة، فلم يُغاثوا.

وكان الأمير إيلغازي، صاحب حلب، ببلد ماردِين يجمع العساكر والمتطوّعة للغزاة، فاجتمع عليه نحو عشرين ألفاً، وكان معه أُسامة بن المبارك بن شِبل الكلابيّ، والأمير طُغان أرسلِان بن المكر، صاحب بَدْلِيس وأرزَن، وسار بهم إلى الشام، عازماً على قتال الفرنج.

فلمّا علم الفرنج قوّة عزمهم على لقائهم، وكانوا ثلاثة آلاف فارس، وتسعة آلاف راجل، ساروا فنزلوا قريباً من الأثارب، بموضع يقال له تَلّ عِفْرينَ، بين جبال ليس لها طريقٌ إلاّ من ثلاث جهات، وفي هذا الموضع قُتل شرف الدولة مُسلْم بن قريش.

وظنّ الفرنج أنّ أحداً لا يسلك إليهم لضيق الطريق، فأخلدوا إلى المطاولة وكانت عادة لهم، إذا رأوا قوّةً من المسلمين؛ وراسلوا إيلغازي يقولون له: لا تُتعبْ نفسك بالمسير إلينا، فنحن واصلون إليك؛ فأعلم أصحابه بما قالوه، واستشارهم فيما يفعل، فأشاروا بالركوب من وقته، وقصْدهم، ففعل ذلك، وسار إليهم، ودخل الناس من الطرق الثلاثة، ولم تعتقد الفرنج أنّ أحداً يقدم عليهم، لصعوبة المسلك إليهم، فلم

---

(١) المنتظم ٩/ ١٧٢ (١٧/ ٢٠٥)، الإنباء في تاريخ الخلفاء ٢١١، المختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٣١، نهاية الأرب ٢٦/ ٣٧٨ ـ ٣٨١، الدرّة المضيّة ٤٨٤، دول الإسلام ٢/ ٤٠، تاريخ الإسلام (٥٠١ ـ ٥٢٠ هـ.) ص ٢٧٧، الكواكب الدرّية ٨٥.

(٢) في الأوربية: «وصانعوا».

(٣) في الأوربية: «قاسموهم».

يشعروا إلاّ وأوائل المسلمين قد غشيتهم[١]، فحمل الفرنج حملة منكرة، فولّوا منهزمين، فلقوا باقي العسكر متتابعة، فعادوا معهم، وجرى بينهم حرب شديدة، وأحاطوا بالفرنج من جميع جهاتهم، وأخذهم السيف من سائر نواحيهم، فلم يفلتْ منهم غير نفر يسير، وقُتل الجميع، وأُسروا.

وكان في جملة الأسرى نيّف وسبعون[٢] فارساً من مقدّميهم، وحُملوا إلى حلب، فبذلوا في نفوسهم ثلاثمائة ألف دينار، فلم يُقبلْ منهم، وغنم المسلمون منهم الغنائم الكثيرة.

وأمّا سيرجال[٣]، صاحب أنطاكية، فإنّه قُتل وحُمل رأسه، وكانت الوقعة منتصف شهر ربيع الأوّل، فممّا مُدح به إيلغازي في هذه الوقعة قول العَظيميّ:

قُلْ ما تشاء فقولُك المقبولُ ... وعليكَ بَعد الخالِق التّعْويلُ
واستَبْشَر القرآنُ حينَ نصرتَهُ ... وبكى لفقدِ[٤] رجالهِ الإنجيلُ

ثم تجمّع من سلِم من المعركة مع غيرهم، فلقِيهم إيلغازي أيضاً، فهزمهم، وفتح منهم حصن الأثارب، وزَرْدَنا[٥]، وعاد إلى حلب، وقرّر أمرها، وأصلح حالها، ثم عبر الفرات إلى ماردِين[٦].

ذكر وقعة أخرى مع الفرنج

في هذه السنة سار جوسلين، صاحب تلّ باشِر، في جمع من الفرنج، نحو مائتَيْ فارس، من طَبَريّة، فكبس طائفة من طيّ يُعرفون ببني خالد، فأخذهم، وأخذ غنائمهم، وسألهم عن بقيّة قومهم من بني ربيعة، فأخبروه أنّهم من وراء الحَزن، بوادي السلالة، بين دمشق وطَبَريّة، فقدّم جوسلين مائة وخمسن فارساً من أصحابه، وسار هو في

---

(١) في الأوربية: «غشيهم».
(٢) في الأوربية: «وسبعين».
(٣) هو: روجر Roger of Antioch.
(٤) في الأوربية: «وبكا بفقد»، وفي الأصل «الفقد».
(٥) في الأصل: «وودنا».
(٦) الإعتبار لابن منقذ ١١٩، تاريخ حلب للعظيمي (بتحقيق زعرور) ٣٧٠ (وتحقيق سويم) ٣٥، زبدة الحلب ٢/ ١٨٩، ١٩٠، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٩، المختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٣١، دول الإسلام ٢/ ٤٠، تاريخ الإسلام ٢٧٨، العبر ٤/ ٢٨، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٥، الدرّة المضيّة ٤٨٤، البداية والنهاية ١٢/ ١٨٠، الكواكب الدرّية ٨٥.

خمسين فارساً على طريق آخر، وواعدهم الصبح ليكبسوا بني ربيعة، فوصلهم الخبر بذلك، فأرادوا الرحيل، فمنعهم أميرهم من بني ربيعة، وكانوا في مائة وخمسين فارساً، فوصلهم المائة وخمسون من الفرنج، معتقدين أنّ جوسلين قد سبقهم، أو سيدركهم، فضلّ الطريق، وتساوت العدّتان، فاقتتلوا، وطعنت العرب خيولهم، فجعلوا أكثرهم رجّالة، وظهر من أميرهم شجاعة، وحُسن تدبير، وجَودة رأي، فقُتل من الفرنج سبعون، وأُسر اثنا عشر من مقدّميهم، بذل كلّ واحدٍ [منهم] في فداء نفسه مالاً جزيلاً وعدّة من الأسرى.

وأمّا جوسلين، فإنّه ضلّ في الطريق، وبلغه خبر الوقعة، فسار إلى طرابلس، فجمع بها جمعاً، وأسْرَى إلى عَسْقَلان، فأغار على بلدها، فهزمه المسلمون هناك، فعاد مفلولاً[١].

ذكر قتل منكوبرس

في هذه السنة قُتل الأمير مَنْكوبِرْس الذي كان شِحنة بغداذ، وقد تقدّم حاله.

وكان سبب قتله: أنّه لمّا انهزم مع السلطان محمود وعاد إلى بغداذ، نهب عدّة مواضع من طريق خُراسان، وأراد دخول بغداذ، فسيّر إليه دُبَيْس بن صدقة مَنْ منعه، فعاد وقد استقرّ الصلح بين السلطانين[٢] سنجَر ومحمود، فقصد السلطانَ سنجَر، فدخل إليه ومعه سيف وكفَن، فقال له: أنا لا أؤآخذ أحداً؛ وسلّمه إلى السلطان محمود، وقال: هذا مملوكك، فاصنَعْ به ما تريد! فأخذه.

وكان في نفسه منه غيظٌ شديد لأسباب، منها: أنّه لمّا توفّي السلطان محمّد أخذ سرّيّته، والدة الملك مسعود، قهراً، قبل انقضاء عِدّتها؛ ومنها: جُرأتُه عليه، واستبداده بالأمور دونه، ومسيره إلى شِحنكيّة بغداذ، والسلطان كارهٌ لذلك لكنّه لم يقدر على منعه؛ ومنها: ما فعله بالعراق من الظلم، إلى غير ذلك، فقتله صبراً، وأراح العباد والبلاد من شرّه[٣].

ذكر قتل الأمير عليّ بن عمر

في هذه السنة أيضاً قُتل الأمير عليُّ بن عُمَر، حاجب السلطان محمّد، وكان قد

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ٢٠١.

(٢) في الأوربية: «السلاطين».

(٣) المنتظم ٩/ ٢٠٧ (١٧/ ١٧٤)، تاريخ الإسلام (حوادث ٥١٣ هـ.) ص ٢٧٩.

صار أكبر أمير مع السلطان محمود، وانقادت العساكر له، فحسده الأمراء، وأفسدوا حاله مع السلطان محمود، وحسّنوا له قتله، فعلم، فهرب إلى قلعة برجين، وهي بين بَرُوجِرْدَ وكَرَج، وكان بها أهله وماله، وسار منها في مائتَيْ فارس إلى خُوزستان، وكانت بيد أقبوري بن برسق، وابني أخوَيْهِ: أُرغُلي بن يَلْبكي، وهنْدُو بن زنكي، فأرسل إليهم وأخذ عهودهم بأمانه وحمايته.

فلمّا سار إليهم أرسلوا عسكراً منعوه من قصدهم، فلقُوه على ستّة فراسخ من تُسْتَر، فاقتتلوا، فانهزم هو وأصحابه، فوقف به فرسه، فانتقل إلى غيره، فتشبّث ذيله بسرجه الأوّل، فأزاله، فعاود التعلّق، فأبطأ، فأدركوه وأسروه، وكاتبوا السلطانَ محموداً في أمره، فأمرهم بقتله، فقُتل وحُمل رأسه إليه.

ذكر الفتنة بين المرابطين وأهل قرطبة

في هذه السنة، وقيل سنة أربع عشرة [وخمسمائة]، كانت فتنة بين عسكر أمير المسلمين عليّ بن يوسف وبين أهل قُرطبُة.

وسببها: أنّ أمير المسلمين استعمل عليها أبا بكر يحيى بن روّاد، فلمّا كان يوم الأضحى خرج الناس متفرّجين، فمدّ عبدٌ من عبيد أبي بكر يده إلى امرأة فأمسكها، فاستغاثت بالمسلمين، فأغاثوها، فوقع بين العبيد وأهل البلد فتنة عظيمة، ودامت جميع النهار، والحرب بينهم قائمة على ساقٍ، فأدركهم الليل، فتفرّقوا، فوصل الخبر إلى الأمير أبي بكر، فاجتمع إليه الفقهاء والأعيان، فقالوا: المصلحة أن تقتل واحداً من العبيد الذين أثاروا الفتنة؛ فأنكر ذلك، وغضب منه، وأصبح من الغد، وأظهر السلاح والعُدَد يريد قتال أهل البلد، فركب الفقهاء والأعيان والشُّبّان من أهل البلد، وقاتلوه فهزموه، وتحصّن بالقصر، فحصروه، وتسلّقوا إليه، فهرب منهم بعد مشقّة وتعب، فنهبوا القصر، وأحرقوا جميع دُور المرابطين، ونهبوا أموالهم، وأخرجوهم من البلد على أقبح صورة.

واتّصل الخبر بأمير المسلمين فكره[1] ذلك واستعظمه، وجمع العساكر من صنهاجة، وزَنَاتة، والبربر، وغيرهم، فاجتمع له منهم جَمْعٌ عظيم، فعبر إليهم سنة خمس عشرة وخمسمائة، وحصر مدينة قُرطُبة، فقاتله أهلها قتال من يريد [أن] يحمي دمه وحريمه وماله، فلمّا رأى أمير المسلمين شدّة قتالهم دخل السُّفراء بينهم، وسعوا في

---

(١) في الأوربية: «فأكره».

الصلح، فأجابهم إلى ذلك على أن يُغَرِّمَ أهلَ قرطبةَ المرابطين ما نهبوه من أموالهم، واستقرّت القاعدة على ذلك، وعاد عن قتالهم.

ذكر ملك عليّ بن سكمان البصرة

في هذه السنة استولى عليّ بن سُكْمان على البصرة.

وسبب ذلك: أنّ السلطان محمّداً[1] كان قد أقطع البصرة الأمير آقسنقَر البخاريّ، فاستخلف بها نائباً يُعرف بسُنقر البياتيّ، فأحسن السيرة إلى حدّ أنّ الماء بالبصرة مِلْح، فأقام سُفناً وجِراراً للضعفاء والسابلة، تحمل لهم الماء العذب. فلمّا توفّي السلطان محمّد عزم هذا الأمير سُنقر على القبض على أمير اسمه غزغلي، مقدّم الأتراك الإسماعيليّة، وهو مذكور، وحجّ بالناس على البصرة عدّة سنين، وعلى أمير آخر اسمه سُنقر ألب، وهو مقدّم الأتراك البُلدقيّة، فاجتمعا عليه، وقبضاه وقيّداه، وأخذا القلعة وما وجداه له.

ثمّ إنْ سُنقر ألب أراد قتله، فمنعه غزغلي، فلم يقبَلْ منه، فلمّا قتله وثب غزغلي على سُنقر ألب فقتله، ونادى في الناس بالسكون، فاطمأنّوا.

وكان أمير الحاجّ من البصرة هذه السنة؛ أمير اسمه عليّ بن سُكْمان أحد الأمراء البلدقيّة، وكان في نفس غزغلي عليه حقد، حيث تمّ الحجّ على يده، ولأنّه خاف أن يأخذ بثأر سُنقر ألب، إذ هو مقدّم البلدقيّة، فأرسل غزغلي إلى عرب البريّة يأمرهم بقصد الحُجّاج ونَهْبهم، فطمعوا بذلك، وقصدوا الحُجّاج فقاتلوهم، وحماهم ابن سُكمان، وأبلى بلاء حسناً، وجعل يقاتلهم وهو سائر نحو البصرة إلى أن بقي بينه وبين البصرة يومان، فأرسل إليه غزغلي يمنعه من قصد البصرة، فقصد العوني، أسفلَ دجلة، هذا، والعرب يقاتلونه، فلمّا وصل إلى العوني حمل على العرب حملة صادقة، فهزمهم.

وسار غزغلي إلى عليّ بن سُكْمان في عددٍ كثير، وكان عليّ في قلّة، فتحاربا، واقتتلت الطائفتان، فأصابت فرس غزغلي نشّابة فسقط وقُتل، وسار عليّ إلى البصرة فدخلها، وملك القلعة، وأقرّ عمّال آقسنقَر البخاريّ ونوّابه، وكاتَبَهُ بالطاعة، وكان عند السلطان، وسأله أن يكون نائباً عنه بالبصرة، فلم يجِبه آقسنقَر إلى ذلك، فطرد حينئذٍ

(١) في الأوربية: «محمّد».

نوّاب آقسنقر، واستولى على البلد، وتصرّف تصرّف الأصحاب، مستبدًا، واستقر فيه، وأحسن السيرة إلى سنة أربع عشرة [وخمسمائة]، فسيّر السلطان محمود الأمير آقسنقر البخاريَّ في عسكر إلى البصرة، فأخذها من عليّ بن سُكمان.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة أمر السلطان سنجَر بإعادة مجاهد الدين بهروز شِحنكيّة العراق، وكان بها نائب دُبَيْس بن صدقة، فعُزل عنها(١).

وفيها، في ربيع الأوّل، توفّي الوزير ربيب الدولة، وزير السلطان محمود، ووَزَرَ بعده الكمال السّميرميُّ، وكان ولد ربيب الدولة، وزير المسترشد، فعُزل، واستُعمل بعده عميد الدولة أبو عليّ بن صدقة، ولُقّب جلال الدين، وهذا الوزير، وهو عمّ الوزير جلال الدين أبي الرضا صدقة، الذي وزر للراشد، والأتابَك(٢) زنكي على ما نذكره(٣).

وفيها ظهر قبر إبراهيم الخليل، وقبرا ولدَيْه إسحاق ويعقوب، عليهم السّلام، بالقرب من البيت المقدّس، ورآهم كثير من الناس لم تبْلَ أجسادهم، وعندهم في المغارة قناديل من ذهب وفضّة، هكذا ذكره حمزة بن أسد التميميُّ في تاريخه(٤)، والله أعلم.

[الوفيات]

وفيها، في المحرّم، توفّي قاضي القضاة أبو الحسن عليُّ بن محمّد الدامغانيُّ(٥)، ومولده في رجب سنة تسعٍ وأربعين وأربعمائة، ووليَ القضاء بباب الطاق من بغداذ إلى الموصل وله من العمر ستّ وعشرون سنة، وهذا شيء لم يكن لغيره، ولمّا توفّي وليَ قضاء القضاة الأكمل أبو القاسم عليُّ بن أبي طالب الحسين بن محمّد الزينبيّ، وخُلع عليه ثالث صفر.

---

(١) المختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٣١، تاريخ الإسلام (حوادث ٥١٣ هـ.) ص ٢٧٩، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٥.

(٢) في الأوربية: «والأتبك».

(٣) تاريخ دولة آل سلجوق ١٠٦ و ١٢٠، تاريخ الإسلام ٢٧٩.

(٤) ذيل تاريخ دمشق ٢٠٢، تاريخ الإسلام ٢٨٠.

(٥) انظر عن (الدامغاني) في: المنتظم ١٧/ ١٧٥، ١٧٩ رقم ٣٨٨١، والبداية والنهاية ١٢/ ١٨٥، وشذرات الذهب ٤/ ٤٠.

[ذكر عدّة حوادث]

وفيها هُدم تاج الخليفة على دجلة للخوف من انهدامه، وهذا التاج بناه أمير المؤمنين المكتفي بعد سنة تسعين ومائتين.

وفيها تأخّر الحجّ، فاستغاث الناس، وأرادوا كسر المِنبر بجامع القصر، فأرسل الخليفة إلى دُبَيْس بن صدقة ليساعد الأمير نظر على تسيير[1] الحُجّاج، فأجاب إلى ذلك، وكان خروجهم من بغداذ ثاني عشر ذي القعدة، وتوالت عليهم الأمطار إلى الكوفة.

وفيها أرسل دُبَيْس بن صدقة القاضي أبا جعفر عبد الواحد بن أحمد الثقفيّ، قاضي الكوفة، إلى إيلغازي بن أُرتُق بماردِين، يخطب ابنته، فزوّجها منه إيلغازي، وحملها الثقفيّ معه إلى الحِلّة، واجتاز بالموصل.

[الوفيات]

وفيها، في جُمادى الأولى، توفّي أبو الوفا عليُّ بن عُقيل[2] بن محمّد بن عُقيل، شيخ الحنابلة، في وقته، ببغداذ، وكان حَسَن المناظرة، سريع الخاطر، وكان قد اشتغل بمذهب المعتزلة في حداثته على أبي [عليّ بن][3] الوليد، فأراد الحنابلة قتله، فاستجار بباب المراتب عدّة سنين، ثم أظهر التوبة حتّى تمكّن من الظهور، وله مصنّفات من جملتها كتاب «الفنون»[4].

---

(١) في الأوربية: «تسئير».

(٢) انظر عن (ابن عقيل) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥١٣ هـ.) ص ٣٤٩ ـ ٣٥٦ رقم ٥٤، وفيه حشدت عشرات المصادر لترجمته.

(٣) في طبعة صادر ١٠/ ٥٦١ «على أبو الوليد»، والتصويب من المصادر.

(٤) انظر عنه في: الذيل على طبقات الحنابلة ٢/ ٢٥٩.

٥١٤
ثم دخلت سنة أربع عشرة وخمسمائة

ذكر عصيان الملك مسعود على أخيه السلطان محمود والحرب بينهما

في هذه السنة، في ربيع الأوّل، كان المصافّ بين السلطان محمود وأخيه الملك مسعود، ومسعود حينئذٍ له الموصِل وأَذْرَبِيجان.

وكان سبب ذلك أنّ دُبَيْس بن صدقة كان يكاتب جيوش بك أتابَك مسعود، يحثّه على طلب السلطنة للملك مسعود، ويَعِده المساعدة، وكان غرضه أن يختلفوا فينال من الجاه وعُلُوّ المنزلة ما ناله أبوه باختلاف السُّلطانين[١] بَرْكيارُق ومحمّد ابنَيْ ملكشاه على ما ذكرناه.

وكان قسيم الدولة البرسقيُّ، أتابَك الملك مسعود، قد فارق شحنكيّة بغداذ، وقد أقطعه مسعود مَراغة، مضافَةً إلى الرَّحبة، وبينه وبين دُبَيْس عداوة مُحكَمة، فكاتب دُبَيْس جيوش بك يشير عليه بقبض البرسقيّ، وينسبه إلى الميل إلى السلطان محمود، وبذل له مالاً كثيراً على قبضه، فعلم البرسقيُّ ذلك، ففارقهم إلى السلطان محمود، فأكرمه وأعلى محلّه وزاد في تقديمه.

واتّصل الأستاذ أبو إسماعيل الحسين بن عليّ الأصبهانيّ الطُّغرائي[٢] بالملك مسعود. فكان ولده أبو المؤيّد، محمّد بن أبي إسماعيل، يكتب الطُّغراء مع الملك، فلمّا وصل والده استوزره مسعود، بعد أن عزل أبا عليّ بن عمّار، صاحب طرابلس، سنة ثلاث عشرة [وخمسمائة] بباب خُوَيّ، فحسّن ما كان دُبَيْس يكاتب به من مخالفة السلطان محمود والخروج عن طاعته:

---

(١) في الأوربية: «السلاطين».

(٢) في الأوربية: «الطفرائي».

وظهر ما هم عليه من ذلك، فبلغ السلطان محموداً[1] الخبر، فكتب إليهم يخوّفهم إن خالفوه، ويَعِدهم الإحسان إن أقاموا على طاعته وموافقته، فلم يُصْغوا إلى قوله، وأظهروا ما كانوا عليه، وما يُسرّونه، وخطبوا للملك مسعود بالسلطنة، وضربوا له النُّوَب الخمس، وكان ذلك على تفرّق من عساكر السلطان محمود، فقوي طمعهم، وأسرعوا السير إليه ليلقوه وهو مُخفّف من العساكر، فاجتمع إليه خمسة عشر ألفاً، فسار أيضاً إليهم، فالتقوا عند عقَبة أَسَدابَاذ، منتصف ربيع الأوّل، واقتتلوا من بُكرة إلى آخر النهار.

وكان البُرسقيّ في مقدّمة السلطان محمود، وأبلى يومئذٍ بلاء حسناً، فانهزم عسكر الملك مسعود، آخر النهار، وأُسر منهم جماعة كثيرة من أعيانهم ومقدّميهم، وأُسر الأستاذ أبو إسماعيل وزير مسعود، فأمر السلطان بقتله، وقال: قد ثبت عندي فساد دينه واعتقاده؛ فكانت وزارته سنةً وشهراً، وقد جاوز ستّين سنة، وكان حَسَن الكتابة والشعر، يميل إلى صنعة الكيمياء، وله فيها تصانيف قد ضيّعت من الناس أموالاً[2] لا تحصى.

وأمّا الملك مسعود فإنّه لمّا انهزم أصحابه وتفرّقوا قصد جبلاً بينه وبين الوقعة اثنا عشر فرسخاً، فاختفى فيه ومعه غلمان صغار، فأرسل ركابيّه عثمان إلى أخيه يطلب له الأمان، فسار إلى السلطان محمود وأعلمه حال أخيه مسعود، فرقّ له، وبذل له الأمان، وأمر آقسنقَر البرسقيَّ بالمسير إليه، وتطييب قلبه، وإعلامه بعفوه عنه، وإحضاره؛ فكان مسعود بعد أن أرسل يطلب الأمان قد وصل بعض الأمراء إليه، وحسّن له اللّحاق بالموصل، وكانت له، ومعها أَذَرْبِيجان، وأشار عليه بمكاتبة دُبَيْس بن صدقة ليجتمع به، ويكثُر جَمْعُه، ويعاود طلب السلطنة، فسار معه من مكانه.

ووصل البرسقيُّ فلم يره، فأُخبر بمسيره، فسار في أثره، وعزم على طلبه ولو إلى الموصل، وجدّ في السير، فأدركه على ثلاثين فرسخاً من مكانه ذلك، وعرّفه عفو أخيه عنه، وضمن له ما أراد، وأعاده إلى العسكر، فأمر السلطان محمود العساكر باستقباله وتعظيمه، ففعلوا ذلك، وأمر السلطان أن ينزل عند والدته، وجلس له، وأحضره، واعتنقا، وبكيا، وانعطف عليه محمود، ووفى[3] له بما بذله، وخلطه بنفسه في كلّ

---

(١) في الأوربية: «محمود».
(٢) في الأوربية: «أصولاً».
(٣) في الأوربية: «ووفا».

أفعاله، فعُدّ ذلك من مكارم محمود، وكانت الخطبة بالسلطنة لمسعود بأَذَرْبيجان، وبلد الموصِل، والجزيرة، ثمانية وعشرين يوماً.

وأمّا أتابكه جيوش بك فإنّه سار إلى عقَبة أسادَابَاذ، وانتظر الملك مسعوداً، فلم يره، وانتظره بمكان آخر، فلم يصل إليه، فلمّا أيِس منه سار إلى الموصل، ونزل بظاهرها، وجمع الغلاّت من السواد إليها، واجتمع إليه عسكره، فلمّا سمع بما فعله السلطان مع أخيه، وأنّه عنده، علم أنّه لا مقام له على هذه الحال، فسار كأنّه يريد الصيد، فوصل إلى الزاب، وقال لمن معه: إنّني قد عزمتُ على قصد السلطان محمود، وأُخاطِر بنفسي؛ فسار إليه، فوصل وهو بهَمذان، ودخل إليه، فطيّب قلبه وأمّنه، وأحسن إليه.

وأمّا دُبَيْس فإنّه كان بالعراق، فلمّا بلغه خبر انهزام الملك مسعود نهب البلاد وخرّبها، وفعل فيها الأفاعيل القبيحة، إلى أن أتاه رسول السلطان محمود، وطيّب قلبه، فلم يلتفت[1].

ذكر حال دُبَيْس وما كان منه

لمّا كان منه ببغداذ وسوادها من النهب والقتل والفساد ما لم يجرِ مثله، أرسل إليه الخليفة المسترشد بالله رسالة ينكر عليه، ويأمره بالكفّ، فلم يفعل، فأرسل إليه السلطان وطيّب قلبه، وأمره بمنع أصحابه عن الفساد، فلم يقبل، وسار بنفسه إلى بغداذ، وضرب سرادقه بإزاء دار الخلافة، وأظهر الضغائن التي في نفسه، وكيف طِيف برأس أبيه، وتهدّد الخليفة، وقال: إنّك أرسلتَ تستدعي السلطان، فإن أعدتموه، وإلاّ فعلتُ وصنعتُ. فأُعيد جواب رسالته: أنّ عَوْدَ السلطان، وقد سار عن همَذان، غير ممكنٍ، ولكنّا نُصلح حالك معه.

وكان الرسول شيخ الشيوخ إسماعيل، فكفّ على أن تسيّر الرسل في الاتّفاق بينه وبين السلطان، وعاد عن بغداذ في رجب.

ووصل السلطان في رجب إلى بغداذ، فأرسل دُبَيْس زوجته ابنة عميد الدولة بن جَهِير إليه، ومعها مال كثير، وهدية نفيسة، وسأل الصفح عنه، فأُجيب إلى ذلك على

---

(١) المنتظم ٩/١٨٦، ١٨٧ (١٧/٢١٧، ٢١٨)، بغية الطلب (قسم السلاجقة) ٢٢٥، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/٨٩، ٩٠، المختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٣٢، تاريخ الإسلام ٢٨٢، ٢٨٣، مرآة الجنان ٣/ ٢٠٥، عيون التواريخ ١٢/١٠٣.

قاعدة امتنع منها، ولزِم لجاجه، ونهب جَشيراً للسلطان. فسار السلطان عن بغداذ، في شوّال، إلى قصد دُبيس بالحِلّة، واستصحب ألف سفينة يعبر فيها، فلمّا علم دُبَيْس مسير السلطان أرسل يطلب الأمان، فأمّنه، وكان قصده أن يغالطه ليتجهّز، فأرسل نساءه إلى البطيحة، وأخذ أمواله وسار عن الحلّة، بعد أن نهبها، إلى إيلغازي ملتجئاً إليه، ووصل السلطان إلى الحِلّة، فلم يرَ أحداً، فبات بها ليلة واحدة وعاد.

وأقام دُبَيْس عند إيلغازي، وتردّد معه، ثمّ إنّه أرسل أخاه منصوراً[1] في جيش من قلعة جَعْبَر إلى العراق، فنظر الحِلّة، والكوفة، وانحدر إلى البَصرة، وأرسل إلى يرنقش الزكويّ يسأله أن يُصلح حاله مع السلطان، فلم يتمّ أمره، فأرسل إلى أخيه دُبَيْس يعرّفه ذلك، ويدعوه إلى العراق، فسار من قلعة جَعْبَر إلى الحِلّة سنة خمس عشرة [وخمسمائة]، فدخلها وملكها، وأرسل إلى الخليفة والسلطان يعتذر، ويعدّ من نفسه الطاعة، فلم يُجَبْ إلى ذلك.

وسُيِّرت إليه العساكر، فلمّا قاربوه فارق الحِلّة، ودخل إلى الأزبر(!)[2]، وهو نهر سِنْداد، ووصل العسكر إليها، وهي فارغة قد أُجلي أهلها عنها، وليس بها إقامة، فكانت المِيرة تُنقل من بغداذ، وكان مقدّم العسكر سعد الدولة يرنقش الزكويّ، فترك بالحِلّة خمسمائة فارس، وبالكوفة جماعة أخرى تحفظ الطريق على دُبَيْس، وأرسل إلى عسكر واسط يحفظ طريق البطيحة، ففعلوا ذلك، وعبر عسكر السلطان إلى دُبَيْس، فبقي بين الطائفتَيْن نهر يخاض فيه مواضع، فتراسل يرنقش ودُبَيْس، واتّفقا على أن يرسل دُبَيْس أخاه منصوراً رهينةً، ويلازم الطاعة، ففعل، وعاد العسكر إلى بغداذ سنة ستّ عشرة [وخمسمائة][3].

ذكر خروج الكُرْج إلى بلاد الإسلام وملك تِفلِيس

في هذه السنة خرج الكُرج، وهم الخَزَر[4]، إلى بلاد الإسلام، وكانوا[5] قديما يغيرون، فامتنعوا أيّام السلطان ملكشاه إلى آخر أيّام السلطان محمّد، فلمّا كانت هذه

---

(١) في الأوربية: «منصور».

(٢) هكذا في الأصل، وبودليان، والباريسية.

(٣) المنتظم ٩/٢٢٧ (١٧/١٩٧، ١٩٨)، بغية الطلب (قسم السلاجقة ٢٢٦)، مرآة الزمان ج ٨ ق ٩٨/١، تاريخ الإسلام (حوادث ٥١٥ هـ.) ص ٢٨٩، و (حوادث ٥١٦ هـ.) ص ٢٩٣.

(٤) في الأوربية: «الجرز».

(٥) في الأوربية: «وكافوا».

السنة خرجوا ومعهم قفجاق، وغيرهم من الأمم المجاورة لهم، فتكاتب الأمراء المجاورون لبلادهم، واجتمعوا، منهم: الأمير إيلغازي، ودُبَيْس بن صدقة، وكان عنده، والملك طُغرل بن محمّد، وأتابكه كنتغدي، وكان لطُغرل بلد أرّان، ونَقْجُوَانَ إلى أرَس، فاجتمعوا وساروا إلى الكُرج، فلمّا قاربوا تِفلِيسَ، وكان المسلمون في عسكر كثير يبلغون [ثلاثين] ألفاً، التقوا واصطفّت الطائفتان للقتال، فخرج من القفجاق مائتا رجل، فظنّ المسلمون أنّهم مستأمنون، فلم يحترزوا منهم، ودخلوا بينهم، ورمَوْا بالنشّاب، فاضطرّب صفّ المسلمين، فظنّ مَن بَعُد أنّها هزيمة، فانهزموا، وتبع الناس بعضهم بعضاً منهزمين، ولشدّة الزحام صدم بعضهم بعضاً، فقُتل منهم عالم عظيم.

وتبعهم الكُفّار عشرة فراسخ يقتلون ويأسرون، فقُتل أكثرهم، وأسروا أربعة آلاف رجل، ونجا الملك طُغرل، وإيلغازي، ودُبَيْس، وعاد الكُرج فنهبوا بلاد الإسلام، وحصروا مدينة تِفليس، واشتدّ قتالهم لمن بها، وعظُم الأمر، وتفاقم الخطْب على أهلها، ودام الحصار إلى سنة خمس عشرة [وخمسمائة]، فملكوها عَنوةً.

وكان أهلها لمّا أشرفوا على الهلاك قد أرسلوا قاضيها وخطيبها إلى الكُرج في طلب الأمان، فلم تُصْغِ الكُرج إليهما فأخرقوا بهما، ودخلوا البلد قهراً وغلبةً، واستباحوه ونهبوه، ووصل المستنفرون منهم إلى بغداذ مستصرخين ومستنصرين سنة ستّ عشرة [وخمسمائة]، فبلغهم أنّ السلطان محموداً بهمَذان، فقصدوه واستغاثوا به، فسار إلى أذربِيجان، وأقام بمدينة تِبريز شهر رمضان، وأنفذ عسكراً إلى الكُرج، وسيرد ذكر ما كان منهم[1]، إن شاء الله تعالىٰ.

ذكر غزوات إيلغازي هذه السنة

في هذه السنة أرسل المسترشد بالله خِلعاً مع سديد الدولة بن الأنباريّ لنجم الدين إيلغازي، وشكره على ما يفعله من غزو الفرنج، ويأمره بإبعاد دُبَيْس عنه، وسار أبو عليّ بن عمّار الذي كان صاحب طرابلس، مع ابن الأنباريّ إلى إيلغازي ليقيم عنده، يعبر الأوقات بما ينعم[2] به عليه، فاعتذر عن إبعاد[3] دُبَيْس، ووعد به، ثم سار إلى

---

(١) الإنباء في تاريخ الخلفاء ٢١٣، ٢١٤، تاريخ مختصر الدول ٢٠١، ٢٠٢، المختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٣٢، دول الإسلام ٢/ ٤١، العبر ٤/ ٣١، تاريخ الإسلام (حوادث ٥١٤ هـ.) ص ٢٨٣، مرآة الجنان ٣/ ٢٠٥، عيون التواريخ ١٢/ ١٠٣.

(٢) في الأوربية: «ينقم».

(٣) في الأوربية: «بإبعاد»، وفي بودليان: «عن إبعاده».

الفرنج، وكان قد جمع لهم جمعاً، فالتقوا بموضعٍ اسمه ذات البقل[1] من أعمال حلب، فاقتتلوا، واشتدّ القتال، وكان الظفر له.

ثم اجتمع إيلغازي وأتابَك طُغتِكين، صاحب دمشق، وحصروا الفرنج في مَعَرّة قِنَّسْرين يوماً وليلةً، ثم أشار أتابَك طُغتِكين بالإفراج عنهم، كيلا يحملهم الخوف على أن يستقتلوا ويخرجوا إلى المسلمين، فربّما ظفروا؛ وكان أكثر خوفه من دُبُر خيل التركمان، وجودة خيل الفرنج، فأفرج لهم إيلغازي، فساروا عن مكانهم وتخلّصوا؛ وكان إيلغازي لا يطيل المُقام في بلد الفرنج لأنّه كان يجمع التركمان للطمع، فيحضر أحدهم ومعه جراب فيه دقيق، وشاة، ويَعُدُّ الساعات لغنيمة يتعجّلها، ويعود، فإذا طال مُقامهم تفرّقوا، ولم يكن له من الأموال ما يفرّقها فيهم.

ذكر ابتداء أمر محمّد بن تومَرت وعبد المؤمن وملكهما

في هذه السنة كان ابتداء أمر المهدي أبي عبد الله محمّد بن عبد الله بن تُومَرت العلويّ، الحسنيّ، وقبيلته من المصامدة، تُعرف بهَرغة في جبل السُّوس، من بلاد المغرب، نزلوا به لمّا فتحه المسلمون مع موسى بن نُصير، ونذكر أمره وأمر عبد المؤمن هذه السنة إلى أن فرغ من ملك المغرب لِتُتْبع بعضَ الحادثة بعضاً.

وكان ابن تُومَرت قد رحل في شبيبته إلى بلاد الشرق في طلب العلم، وكان فقيهاً، فاضلاً، عالماً بالشريعة، حافظاً للحديث، عارفاً[2] بأصولَي الدين والفِقه، متحقّقاً بعلم العربيّة، وكان ورِعاً، ناسكاً، ووصل في سفره إلى العراق، واجتمع بالغزاليّ، وإلْكِيا، واجتمع بأبي بكر الطُّرطوشيّ بالإسكندريّة، وقيل إنّه جرى له حديث مع الغزاليّ فيما فعله بالمغرب من التملّك، فقال له الغزاليُّ: إنّ هذا لا يتمشّى في هذه البلاد، ولا يمكن وقوعه لأمثالنا.

كذا قال بعض مؤرّخي المغرب، والصحيح أنّه لم يجتمع به، فحجّ من هناك وعاد إلى المغرب، ولمّا ركب البحر من الإسكندريّة، مغرباً، غيّر المنكر في المركب، وألزم مَن به بإقامة الصّلاة، وقراءة القرآن، حتّى انتهى إلى المَهديّة، وسلطانها حينئذٍ يحيى بن تميم، سنة خمسٍ وخمسمائة، فنزل بمسجدٍ قبليّ، مسجد السبت، وليس له سوى

---

(١) في الباريسية: «النقل»، وفي بودليان: «ذا نيث اليقل»، وهو «دانيث البقل» Danith بين أنطاكية وحلب.
(٢) في الأوربية: «غارماً».

رَكوة، وعَصاً، وتسامع به أهل البلد، فقصدوه يقرأون عليه أنواع العلوم، وكان إذا مرّ به منكرٌ غيّره وأزاله، فلمّا كثُر ذلك منه أحضره الأمير يحيى مع جماعة من الفقهاء، فلمّا رأى سمتَهُ وسمع كلامه أكرمه واحترمه، وسأله الدعاء.

ورحل عن المدينة وأقام بالمُنَسْتِير مع جماعةٍ من الصالحين، مدّةً، وسار إلى بِجَايَةَ ففعل فيها مثل ذلك، فأُخرج منها إلى قَرية بالقرب منها اسمها مَلاَّلَة[1]، فلقِيه بها عبد المؤمن بن عليّ، فرأى فيه من النجَابة والنهضة ما تفرّس فيه التقدّم، والقيام بالأمر، فسأله عن اسمه وقبيلته، فأخبره أنّه من قيس عيلان، ثم من بني سُلَيْم، فقال ابن تُومَرت: هذا الذي بشّر به النبيّ ﷺ، حين قال: إنّ الله ينصر هذا الدين، في آخر الزمان، برجل من قيس، فقيل: من أيّ قيسٍ؟ فقال: من بني سُليم. فاستبشر بعبد المؤمن وسُرّ بلقائه؛ وكان مولد عبد المؤمن في مدينة تَاجَرَة، من أعمال تِلِمْسان، وهو من عائذ، قبيلٌ من كومرة، نزلوا بذلك الإقليم سنة ثمانين ومائة.

ولم يزل المهديّ ملازِماً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في طريقه إلى أن وصل إلى مرّاكش دار مملكة أمير المسلمين يوسف بن عليّ بن تاشفين، فرأى فيها من المنكَرات أكثر ممّا عاينه في طريقه، فزاد في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فكثُر أتباعه، وحسنت ظنون الناس فيه، فبينما هو في بعض الأيّام في طريقه، إذ رأى أخت أمير المسلمين في موكبها، ومعها من الجواري الحِسان عدّة كثيرة، وهنّ مُسْفِرات، وكانت هذه عادة الملثّمين يُسفر نساؤهم [عن] وجوههنّ، ويتلثّم الرجال، فحين رأى النساء كذلك أنكر عليهنّ، وأمرهنّ بستر وجوههنّ وضرب هو وأصحابه دوابّهنّ، فسقطت أخت أمير المسلمين عن دابّتها، فرُفع أمره إلى أمير المسلمين عليّ بن يوسف، فأحضره، وأحضر الفقهاء ليناظروه فأخذ يَعِظه، ويخوّفه، فبكى أمير المسلمين، وأمر أن يناظره الفقهاء، فلم يكن فيهم من يقوم له لقوّة أدلّته في الذي فعله.

وكان عند أمير المسلمين بعض وزرائه يقال له مالك بن وهيب، فقال: يا أمير المسلمين، إنّ هذا والله لا يريد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنما يريد إثارة فتنة، والغلبة على بعض النواحي، فاقتله وقلّدني دمه. فلم يفعل ذلك، فقال: إن[2] لم تقتله فاحبسه، وخلّده [في] السجن، وإلاّ أثار شرّاً لا يمكن تلافيه. فأراد حبسه، فمنعه رجل من أكابر الملثّمين يسمّى بيان بن عثمان، فأمر بإخراجه من مرّاكُش، فسار إلى

(١) في الأصل: «ملاية».
(٢) في الأوربية: «إذ».

أغمَاتَ، ولحِق بالجبل، فسار فيه، حتّى التحق بالسّوسِ الذي فيه قبيلة هرغة وغيرهم من المصامدة سنة أربع عشرة [وخمسمائة]، فأتوه، واجتمعوا حوله.

وتسامع به أهل تلك النواحي، فوفدوا عليه، وحضر أعيانهم بين يدَيْه، وجعل يعظهم، ويذكّرهم بأيّام الله، ويذكر لهم شرائع الإسلام، وما غُيّر منها، وما حدث من الظلم والفساد، وأنّه لا يجب طاعة دولة من هذه الدول لاتّباعهم الباطل، بل الواجب قتالهم، ومَنْعهم عمّا هم فيه، فأقام على ذلك نحو سنة، وتابعته هرغة قبيلته، وسمّى أتباعه الموحّدين، وأعلمهم أنّ النبيّ ﷺ بشّر بالمهديّ الذي يملأ الأرض عدلاً، وأنّ مكانه الذي يخرج منه المغرب الأقصى، فقام إليه عشرة رجال، أحدهم عبد المؤمن، فقالوا: لا يوجد هذا إلاّ فيك فأنت المهديُّ؛ فبايعوه على ذلك.

فانتهى خبره إلى أمير المسلمين، فجهّز جيشاً من أصحابه وسيّرهم إليه، فلمّا قَرُبوا من الجبل الذي هو فيه، قال لأصحابه: إنّ هؤلاء يريدونني، وأخاف عليكم منهم، فالرأي أن أخرج بنفسي إلى غير هذه البلاد لتسلموا أنتم. فقال له ابن توفيان[1] من مشايخ هرغة: هل تخاف شيئاً من السماء؟ فقال: لا، بل من السماء تُنصرون؛ فقال ابن توفيان[2]: فليأتنا كلّ مَن في الأرض. ووافقه جميع قبيلته، فقال المهديّ: أبشِروا بالنصر والظَّفَر بهذه الشرذمة، وبعد قليل تستأصلون دولتهم، وترِثون أرضهم. فنزلوا من الجبل، ولقوا جيش أمير المسلمين، فهزموهم، وأخذوا أسلابهم، وقوي ظنّهم في صدق المهدي، حيث ظفروا، كما ذكر لهم.

وأقبلت إليه أفواج القبائل، من الحِلل التي حولَه، شرقاً وغرباً، وبايعوه، وأطاعته قبيلة هنتاتة، وهي من أقوى القبائل، فأقبل عليهم، واطمأنّ إليهم، وأتاه رسل أهل تِينِ مَلّلَ[3] بطاعتهم، وطلبوه إليهم، فتوجّه إلى جبل تِينِ مَلّل واستوطنه، وألّف لهم كتاباً في التوحيد، وكتاباً في العقيدة، ونهج لهم طريق الأدب بعضهم مع بعض، والاقتصار على القصير من الثياب، القليل الثمن، وهو يحرّضهم على قتال عدوّهم، وإخراج الأشرار من بين أظهرهم.

وأقام بِتِينِ مَلّل وبنى[4] له مسجداً خارج المدينة، فكان يصلّي فيه الصلوات هو

---

(١) في الباريسية: «توفمان»، وفي بودليان: «سوفيان».
(٢) في بودليان: «سوفمان».
(٣) هكذا في الأصل.
(٤) في الأوربية: «وبنا».

وجمْعٌ ممّن معه عنده، ويدخل البلد بعد العِشاء الآخرة، فلمّا رأى كثرة أهل الجبل، وحصانة المدينة، خاف أن يرجعوا عنه، فأمرهم أن يحضروا بغير سلاح، ففعلوا ذلك عدّة أيّام، ثم إنّه أمر أصحابه أن يقتلوهم، فخرجوا عليهم وهم غارّون فقتلوهم في ذلك المسجد، ثم دخل المدينة فقتل فيها وأكثر، وسبى[1] الحريم، ونهب الأموال، فكان عدّة القتلى خمسة عشر ألفاً، وقسّم المساكن والأرض بين أصحابه، وبنى[2] على المدينة سوراً، وقلعة على رأس جبلٍ عالٍ.

وفي جبلِ تِينِ مَلَّلَ أنهار جارية، وأشجار، وزروع، والطريق إليه صعب، فلا جبل أحصن منه.

وقيل: إنّه لـمّا خاف أهل تِينِ مَلَّلَ نظر، فرأى كثيراً من أولادهم شُقراً زُرقاً، والذي يغلب على الآباء السُّمرة، وكان لأمير المسلمين عدّة كثيرة من المماليك الفرنج والروم، ويغلب على ألوانهم الشُّقرة، وكانوا يصعدون الجبل في كلّ عام مرّةً، ويأخذون ما لهم فيه من الأموال المقرّرة لهم من جهة السلطان، فكانوا يسكنُون بيوت أهله، ويخرجون أصحابها منها، فلمّا رأى المهديّ أولادهم سألهم: ما لي أراكم سُمر الألوان، وأرى أولادكم شُقراً، زُرقاً؟ فأخبروه خبرهم مع مماليك أمير المسلمين، فقبّح الصبر على هذا، وأزرى عليهم، وعظّم الأمر عندهم، فقالوا له: فكيف الحيلة في الخلاص منهم، وليس لنا بهم قوّة؟ فقال: إذا حضروا عندكم في الوقت المعتاد، وتفرّقوا في مساكنهم، فليقمْ كلّ رجل منكم إلى نزيلِه فيقتلهُ، واحفظوا جبلكم، فإنّه لا يرام ولا يُقْدَر عليه. فصبروا حتّى حضر أولئك العبيد، فقتلوهم على ما قرّر لهم المهدي، فلمّا فعلوا ذلك خافوا على نفوسهم من أمير المسلمين، فامتنعوا في الجبل، وسدّوا ما فيه من طريق يُسْلَك إليهم، فقويت نفس المهدي بذلك.

ثم إنّ أمير المسلمين أرسل إليهم جيشاً قويّاً، فحصروهم في الجبل، وضيّقوا عليهم، ومنعوا عنهم الميرة، فقلّتْ عند أصحاب المهدي الأقواتُ، حتّى صار الخبز معدوماً عندهم، وكان يطبخ لهم كلّ يوم من الحساء ما يكفيهم، فكان قوت كلّ واحد منهم أن يغمسَ يده في ذلك الحساء ويخرجَها، فما علق عليها قنع به ذلك اليوم، فاجتمع أعيان أهل تِينِ مَلَّلَ، وأرادوا إصلاح الحال مع أمير المسلمين، فبلغ الخبر بذلك المهدي بن تُومَرت، وكان معه إنسان يقال له أبو عبد الله الونشريشيُّ، يُظهر البله،

(١) في الأوربية: «وسبا».
(٢) في الأوربية: «وبنا».

وعدم المعرفة بشيء من القرآن والعلم، وبُزاقه يجري على صدره، وهو كأنّه معتوه، ومع هذا فالمهدي يقرّبه، ويُكرمه، ويقول: إنّ لله سِرّاً في هذا الرجل سوف يظهر.

وكان الونشريشيّ يلزم الاشتغال بالقرآن والعلم في السرّ بحيث لا يعلم أحد ذلك منه، فلمّا كان سنة تسع عشرة [وخمسمائة]، وخاف المهديُّ من أهل الجبل، خرج يوماً لصلاة الصُّبح، فرأى إلى جانب محرابه إنساناً حسن الثياب، طيّب الريح، فأظهر أنّه لا يعرفه، وقال: مَنْ هذا؟ فقال: أنا أبو عبد الله الونشريشيّ! فقال له المهدي: إن أمرك لعجب! ثم صلى، فلما فرغ من صلاته نادى في الناس فحضروا، فقال: إن هذا الرجل يزعم أنه الونشريشي، فانظروه، وحقّقوا أمره. فلمّا أضاء النهار[1] عرفوه، فقال له المهديُّ: ما قصّتك؟ قال: إنّني أتاني الليلة ملك من السماء، فغسل قلبي، وعلّمني الله القرآن، والموطّأ، وغيره من العلوم والأحاديث. فبكى المهديُّ بحضرة الناس، ثم قال له: نحن نمتحنك؛ فقال: افعلْ.

وابتدأ يقرأ القرآن قراءة حسنة من أيّ موضع سُئل، وكذلك الموطّأ، وغيره من كتب الفقه والأصول، فعجب الناس من ذلك، واستعظموه.

ثم قال لهم: إنّ الله تعالىٰ قد أعطاني نوراً أعرف به أهل الجنّة من أهل النار، وآمركم أن تقتلوا أهل النار، وتتركوا أهل الجنّة، وقد أنزل الله تعالىٰ ملائكة إلى البئر التي في المكان الفلاني يشهدون بصدقي.

فسار المهديُّ، والناس معه وهم يبكون، إلى تلك البئر، وصلّى المهديُّ عند رأسها، وقال: يا ملائكة الله! إنّ أبا عبد الله الونشريشيّ قد زعم كيتَ وكيتَ؛ فقال مَن بها: صدق! وكان قد وضع فيها رجالاً يشهدون بذلك، فلمّا قيل ذلك من البئر، قال المهدي: إنّ هذه مطهّرة مقدّسة قد نزل إليها الملائكة، والمصلحة أن تُطمّ لئلاّ يقع فيها نجاسة، أو ما لا يجوز؛ فألقوا فيها من الحجارة والتراب ما طمّها، ثم نادى في أهل الجبل بالحضور إلى ذلك المكان، فحضروا للتمييز[2]، فكان الونشريشيّ يعمد إلى الرجل الذي يخاف ناحيته، فيقول: هذا من أهل النار؛ فيُلقى من الجبل مقتولاً، وإلى الشاب الغِرّ، ومن لا يخشى، فيقول: هذا من أهل الجنّة؛ فيُترك على يمينه، فكان عدّة القتلى سبعين ألفاً. فلمّا فرغ من ذلك أمن على نفسه وأصحابه واستقام أمر.

(١) في الأوربية: «النهر».
(٢) في الأوربية: «للتمئيز».

هكذا سمعتُ جماعة من فضلاء المغاربة يذكرون في التمييز، وسمعتُ منهم من يقول: إنّ ابن تُومَرت لمّا رأى كثرة أهل الشرّ والفساد في أهل الجبل، أحضر شيوخ القبائل، وقال لهم: إنّكم لا يصحّ لكم دين، ولا يقوى إلاّ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإخراج المفسد من بينكم، فابحثوا عن كلّ مَن عندكم من أهل الشرّ والفساد، فانهوهم عن ذلك، فإن انتهَوا، وإلاّ فاكتبوا أسماءهم وارفعوها إليّ لأنظر في أمرهم. ففعلوا ذلك، وكتبوا له أسماءهم من كلّ قبيلة، ثم أمرهم بذلك مرّة ثانية، وثالثة، ثم جمع المكتوبات فأخذ منها ما تكرّر من الأسماء فأثبتها عنده، ثم جمع الناس قاطبةً، ورفع الأسماء التي كتبها، ودفعها إلى الونشريشيّ المعروف بالبشير، وأمره أن يعرض القبائل، ويجعل أولئك المفسدين في جهة الشمال، ومَن عداهم في جهة اليمين، ففعل ذلك، وأمر أن يُكتَّف مَن على شمال الونشريشيّ، فكتفوا، وقال: إنّ هؤلاء أشقياء قد وجب قتلهم؛ وأمر كلّ قبيلة أن يقتلوا أشقياءهم، فقُتلوا عن آخرهم فكان يوم التمييز.

ولمّا فرغ ابن تومرت من التمييز، رأى أصحابه[1] الباقين على نيّات صادقة، وقلوب متّفقة على طاعته، فجهّز منهم جيشاً وسيّرهم إلى جبال أغمات، وبها جمعٌ من المرابطين، فقاتلوهم، فانهزم أصحاب ابن تومرت، وكان أميرهم أبو عبد الله الونشريشيّ، وقُتل منهم كثير، وجُرح عمر الهنتاتيُّ[2]، وهو من أكبر أصحابه، وسكن حسّه ونبضه، فقالوا: مات! فقال الونشريشيُّ: أما إنه لم يمُتْ، ولا يموت حتى يملك البلاد. فبعد ساعة فتح عينَيْه، وعادت قوّته إليه، فافتتنوا به، وعادوا منهزمين إلى ابن تومرت، فوعظهم، وشكرهم على صبرهم.

ثم لم يزل بعدها يُرسل السرايا في أطراف بلاد المسلمين، فإذا رأوا عسكراً تعلّقوا بالجبل فأمِنوا. وكان المهديُّ قد رتّب أصحابه مراتبَ؛ فالأولى يسمّون أيت عشرة يعني أهل عشرة، وأوّلهم عبد المؤمن، ثم أبو حفص الهنتاتيّ، وغيرهما، وهم أشرف أصحابه، وأهل الثقة عنده، والسابقون إلى متابعته؛ والثانية: أيت خمسين، يعني أهل خمسين، وهم دون تلك الطبقة، وهم جماعة من رؤساء القبائل؛ والثالثة: أيت سبعين، يعني أهل سبعين، وهم دون التي قبلها، وسمّي عامّة أصحابه والداخلين في طاعته موحّدين، فإذا ذُكر الموحّدون في أخبارهم فإنّما يُعنى أصحابه وأصحاب عبد المؤمن بعده.

---

(١) في الأوربية: «أصحاب».

(٢) في الأصل: «هساى».

ولم يزل أمر ابن تومرت يعلو إلى سنة أربع وعشرين [وخمسمائة]، فجهّز المهديّ جيشاً كثيفاً يبلغون أربعين ألفاً، أكثرهم رجّالة، وجعل عليهم الونشريشيّ، وسيّر معهم عبدَ المؤمن، فنزلوا وساروا إلى مرَّاكُش فحصروها، وضيّقوا عليها، وبها أمير المسلمين عليُّ بن يوسف، فبقي الحصار عليها عشرين يوماً، فأرسل أمير المسلمين إلى متولّي سِجِلْمَاسة يأمره أن يحضر ومعه الجيوش، فجمع جيشاً كثيراً وسار، فلمّا قارب عسكر المهديّ خرج أهل مرَّاكُش من غير الجهة التي أقبل منها، فاقتتلوا، واشتدّ القتال، وكثُر القتل في أصحاب المهدي، فقُتل الونشريشيّ أميرهم، فاجتمعوا إلى عبد المؤمن وجعلوه أميراً عليهم.

ولم يزل القتال بينهم عامّة النهار، وصلّى عبد المؤمن صلاة الخوفِ، الظُّهرَ والعصْرَ، والحرب قائمة، ولم تُصلّ بالمغرب قبل ذلك، فلمّا رأى المصامدة كثرة المرابطين، وقوّتهم، أسندوا ظهورهم إلى بستان كبير هناك، والبستان يُسمّى عندهم البُحيرة، فلهذا قيل وقعة البُحيرة، وعام البُحيرة، وصاروا يقاتلون من جهة واحدة إلى أن أدركهم الليل، وقد قُتل من المصامدة(١) أكثرهم، وحين قُتل الونشريشيُّ دفنه عبد المؤمن، فطلبه المصامدة، فلم يروه في القتلى، فقالوا: رفعتْه الملائكة؛ ولمّا جنّهم الليل سار عبد المؤمن ومن سلم من القَتْل إلى الجبل.

ذكر وفاة المهدي وولاية عبد المؤمن

لمّا سيّر الجيش إلى حصار مَرَّاكُش مرض مرضاً شديداً، فلمّا بلغه خبر الهزيمة اشتدّ مرضه، وسأل عن عبد المؤمن، فقيل: هو سالم؛ فقال: ما مات أحد، الأمر قائم، وهو الذي يفتح البلاد. ووصّى أصحابه باتّباعه، وتقديمه، وتسليم الأمر إليه، والانقياد له، ولقّبه أمير المؤمنين.

ثم مات المهديُّ، وكان عمره إحدى وخمسين سنة، وقيل: خمساً(٢) وخمسين سنة، ومدّة ولايته عشرين سنة، وعاد عبد المؤمن إلى تِين مَلّلَ، وأقام بها يتألّف القلوب، ويحسن إلى الناس، وكان جواداً مقداماً في الحروب، ثابتاً في الهزاهز، إلى أن دخلت سنة ثمانٍ وعشرين وخمسمائة، فتجهّز وسار في جيش كثير، وجعل يمشي مع الجبل أن أن وصل إلى تَادَلَة، فمانعه أهلُها، وقاتلوه، فقهرهم، وفتحها وسائر البلاد

---

(١) في الأوربية: «المصاعدة».

(٢) في الأوربية: «خمس».

التي تليها ومشى[1] في الجبال يفتح ما امتنع عليه، وأطاعته صنهاجة الجبل.

وكان أمير المسلمين قد جعل وليَّ عهده ابنه سير، فمات، فأحضر أمير المسلمين ابنه تاشفين من الأندلس، وكان أميراً عليها، فلمّا حضر عنده جعله وليَّ عهده سنة إحدى وثلاثين [وخمسمائة]، وجعل معه جيشاً، وصار يمشي في الصحراء قبالة عبد المؤمن في الجبال.

وفي سنة اثنتين وثلاثين كان عبد المؤمن في النواظر، وهو جبل عالٍ مشرفٌ، وتاشفين في الوطأ، [وكان] يخرج من الطائفتَيْن قوم يترامون ويتطاردون، ولم يكن بينهما لقاء، ويسمّى عام النواظر.

وفي سنة ثلاثٍ وثلاثين توجّه عبد المؤمن، مع الجبل، في الشَّعْراء، حتّى انتهى إلى جبل كرناطة، فنزل في أرض صُلْبة، بين شجر، ونزل تاشفين قبالته، في الوطأة، في أرض لا نبات فيها، وكان الفصل شاتياً، فتوالت الأمطار أيّاماً كثيرة لا تُقلِع[2]، فصارت الأرض التي فيها تاشفين وأصحابه كثيرة الوحل، تسوخ فيها قوائم الخيل إلى صدورها، ويعجز الرجل عن المشي فيها، وتقطّعت الطرق عنهم، فأوقدوا رماحهم، وقرابيس سروجهم، وهلكوا جوعاً وبرداً وسوء حالٍ.

وكان عبد المؤمن وأصحابه في أرض خشنة صلبة في الجبل، لا يبالون بشيء، والميرة متّصلة إليهم؛ وفي ذلك الوقت سيّر عبد المؤمن جيشاً إلى وَجْرَةَ من أعمال تِلِمْسان، ومقدّمهم أبو عبد الله محمّد بن رقو، وهو من أيت خمسين، فبلغ خبرهم إلى محمّد بن يحيى بن فانّوا[3]، متولّي تِلِمْسان، فخرج في جيش من الملثّمين، فالتقوا بموضع يُعرف بخندق الخمر، فهزمهم جيش عبد المؤمن، وقُتل محمّد بن يحيى وكثير من أصحابه، وغنموا ما معهم ورجعوا؛ فتوجّه عبد المؤمن بجميع جيشه إلى غمارة، فأطاعوه قبيلة بعد قبيلة، وأقام عندهم مدّة.

وما برح يمشي في الجبال، وتاشفين يحاذيه في الصحارى، فلم يزل عبد المؤمن كذلك إلى سنة خمسٍ وثلاثين، فتوفّي أمير المسلمين عليّ بن يوسف بمرّاكُش وملك بعده ابنه تاشفين، فقوي طمع عبد المؤمن في البلاد، إلاّ أنّه لم ينزل الصحراء.

وفي سنة ثمانٍ وثلاثين توجّه عبد المؤمن إلى تِلِمْسان، فنازلها، وضرب خيامه في

(١) في الأوربية: «ومشا».
(٢) في الأوربية: «يقلع».
(٣) في الباريسية: «ڡادوا»، وبودليان: «فانوا».

جبل بأعلاها، ونزل تاشفين على الجانب الآخر من البلد، وكان بينهم مناوشة، فبقوا كذل إلى سنة تسعٍ وثلاثين، فرحل عبد المؤمن عنها إلى جبل تَاجَرَة، ووجّه جيشاً مع عمر الهنتاتيّ إلى مدينة وَهْران، فهاجمها بغتةً، وحصل هو وجيشه فيها، فسمع [بذلك عبد المؤمن] فسار إليها، فخرج منها عمر، ونزل تاشفين بظاهر وَهْران، على البحر، في شهر رمضان سنة تسعٍ وثلاثين، فجاءت ليلة سبعٍ وعشرين منه، وهي ليلة يعظّمها أهل المغرب، وبظاهر وَهْران ربوة مطلّة على البحر، وبأعلاها ثَنيّة يجتمع فيها المتعبّدون، وهو موضع معظّم عندهم، فسار إليه تاشفين في نفر يسير من أصحابه متخفّياً، لم يعلم به إلاّ النفر الذين معه، وقصد التبرّك بحضور ذلك الموضع مع أولئك الجماعة الصالحين، فبلغ الخبر إلى عمر بن يحيى الهنتاتيّ، فسار لوقته بجميع عسكره إلى ذلك المتعبَّد، وأحاطوا به، وملكوا الربوة، فلمّا خاف تاشفين على نفسه أن يأخذوه ركب فرسه وحمل عليه إلى جهة البحر، فسقط من جُرفٍ عالٍ على الحجارة فهلك، ورُفعت جثّته على خشبة، وقُتل كلّ من كان معه.

وقيل: إنّ تاشفين قصد حصناً هناك على رابية، وله فيه بستان كبير فيه من كلّ الثمار، فاتّفق أنّ عمر الهنتاتيَّ، مقدّم عسكر عبد المؤمن، سيّر سريّةً إلى ذلك الحصن، يُعلمهم بضعفَ مَن فيه، ولم يعلموا أنّ تاشفين فيه، فألقوا النار في بابه فاحترق، فأراد تاشفين الهرب، فركب فرسه، فوثب الفرس من داخل الحصن إلى خارج السور، فسقط في النار، فأُخذ تاشفين، فاعترف، فأرادوا حمله إلى عبد المؤمن، فمات في الحال لأنّ رقبته كانت قد اندقّت، فصُلب، وقُتل كلّ من معه، وتفرّق عسكره ولم يَعُدْ لهم جماعة. وملك بعده أخوه إسحاق بن عليّ بن يوسف.

ولمّا قُتل تاشفين أرسل عمر إلى عبد المؤمن بالخبر، فجاء من تَاجَرَة في يومه بجميع عسكره، وتفرّق عسكر أمير المسلمين، واحتمى بعضهم بمدينة وَهْران، فلمّا وصل عبد المؤمن دخلها بالسيف، وقتل فيها ما لا يُحصى. ثم سار إلى تِلِمْسان، وهما مدينتان بينهما شوط فرس، إحداهما تاهَرْتُ[(١)]، وبها عسكر المسلمين، والأخرى[(٢)] أقادير[(٣)]، وهي بناء قديم، فامتنعت أقادير[(٣)]، وغلقت أبوابها، وتأهّب أهلها للقتال.

وأمّا تاهَرْتُ[(١)]، فكان فيها يحيى بن الصحراويّة، فهرب منها بعسكره إلى مدينة

---

(١) في الأوربية: «أحدهما تاجرت»، وفي هامش الباريسية: «تامردت»، وبودليان: «تامررت».

(٢) في الأوربية: «والآخر».

(٣) تُعرف الآن «أغادير».

فاس، وجاء عبد المؤمن إليها، فدخلها لمّا فرّ منها العسكر، ولقيه أهلها بالخضوع والاستكانة، فلم يقبل منهم ذلك، وقتل أكثرهم، ودخلها عسكره، ورتّب أمرها، ورحل عنها، وجعل على أقادير جيشاً يحصرها، وسار إلى مدينة فاس سنة أربعين [وخمسمائة] فنزل على جبل مُطِلّ عليها، وحصرها تسعة أشهر، وفيها يحيى بن الصحراويّة، وعسكره الذين فرّوا من تِلِمْسان، فلمّا طال مُقام عبد المؤمن عمد إلى نهر يدخل البلد فسكّره بالأخشاب والتراب وغير ذلك، فمنعه من دخول البلد، وصار بُحيرة تسير فيها السفن، ثم هدم السكر، فجاء الماء دفعةً واحدة فخرّب سور البلد، وكلّ ما يجاور(١) النهر من البلد، وأراد عبد المؤمن أن يدخل البلد، فقاتله أهله خارج السور، فتعذّر عليه ما قدّره من دخوله.

وكان بفاس عبد الله بن خيار الجَيّانيّ(٢) عاملاً عليها وعلى جميع أعمالها، فاتّفق هو وجماعة من أعيان البلد، وكاتبوا عبدَ المؤمن في طلب الأمان لأهل فاس، فأجابهم إليه، ففتحوا له باباً من أبوابها، فدخلها عسكره، وهرب يحيى بن الصحراويّة، وكان فتحها آخر سنة أربعين وخمسمائة، وسار إلى طنجَةَ، ورتّب عبد المؤمن أمر مدينة فاس، وأمر فنودي في أهلها: مَن ترك عنده سلاحاً وعدّة قتال حلّ دمه؛ فحمل كلّ من في البلد ما عندهم من سلاح إليه، فأخذه منهم.

ثم رجع إلى مِكْنَاسَة، ففعل بأهلها مثل ذلك، وقتل من بها من الفرسان والأجناد.

وأمّا العسكر الذي كان على تِلِمْسان فإنّهم قاتلوا أهلها ونصبوا المجانيق، وأبراج الخشب، وزحفوا بالدبّابات؛ وكان المقدّم على أهلها الفقيه عثمان، فدام الحصار نحو سنة، فلمّا اشتدّ الأمر على أهل البلد اجتمع جماعة منهم وراسلوا الموحّدين أصحاب عبد المؤمن، بغير علم الفقيه عثمان، وأدخلوهم البلد، فلم يشعر أهله إلاّ والسيف يأخذهم، فقُتل أكثر أهله، وسُبيت الذريّة والحريم، ونُهب من الأموال ما لا يُحصى، ومن الجواهر ما لا تُحدّ قيمته، ومن لم يُقتل بِيع بأوكس الأثمان، وكان عدّة القتلى مائة ألف قتيل، وقيل: إنّ عبد المؤمن هو الذي حصر تِلِمْسان، وسار منها إلى فاس، والله أعلم.

---

(١) في الأوربية: «وكلما يجاوز».
(٢) في الأصل: «الجباني».

وسيّر عبد المؤمن سريّة إلى مِكناسةَ، فحصروها مدّةً، ثم سلّمها إليهم أهلها بالأمان فوفوا لهم.

وسار عبد المؤمن من فاس إلى مدينة سَلاً ففتحها، وحضر عنده جماعة من أعيان سَبتَةَ، فدخلوا في طاعته، فأجابهم إلى بذل الأمان، وكان ذلك سنة إحدى وأربعين [وخمسمائة].

ذكر ملك عبد المؤمن مدينة مَرّاكُش

لمّا فرغ عبد المؤمن من فاس، وتلك النواحي، سار إلى مَرَّاكُشَ، وهي كرسيّ مملكة الملثّمين، وهي من أكبر المدن وأعظمها، وكان صاحبها حينئذ إسحاق بن عليّ بن يوسف بن تاشفين، وهو صبيّ، فنازلها، وكان نزوله عليها[(١)] سنة إحدى وأربعين [وخمسمائة]، فضرب خيامه في غربيّها على جبل صغير، وبنى[(٢)] عليه مدينة له ولعسكره، وبنى[(٢)] بها جامعاً وبنى[(٢)] له بناء عالياً يُشرف[(٣)] منه على المدينة، ويرى أحوال أهلها، وأحوال المقاتلين من أصحابه، وقاتلها قتالاً كثيراً، وأقام عليها أحد عشر شهراً، فكان من بها من المرابطين يخرجون يقاتلونهم بظاهر البلد، واشتدّ الجوع على أهله، وتعذّرت الأقوات عندهم.

ثم زحف إليهم يوماً، وجعل لهم كميناً، وقال لهم: إذا سمعتم صوت الطبل فاخرجوا؛ وجلس هو بأعلى المنظرة التي بناها يشاهد القتال، وتقدّم عسكره، وقاتلوا، وصبروا، ثم إنّهم انهزموا لأهل مَرّاكُش ليتبعوهم إلى الكمين الذي لهم، فتبعهم الملثّمون إلى أن وصلوا إلى مدينة عبد المؤمن، فهدموا أكثرَ سورها، وصاحت المصامدة بعبد المؤمن ليأمر بضرب الطبل ليخرج الكمين، فقال لهم: اصبروا حتّى يخرج كلّ طامع في البلد؛ فلمّا خرج أكثر أهله أمر بالطبل فضُرب وخرج الكمين عليهم، ورجع المصامدة المنهزمون إلى الملثّمين فقتلوهم كيف شاءوا، وعادت الهزيمة على الملثّمين، فمات في زحمة الأبواب ما لا يحصيه إلاّ الله سبحانه.

وكان شيوخ الملثّمين يدبّرون دولة إسحاق بن عليّ بن يوسف لصغر سنّه، فاتّفق أنّ إنساناً من جملتهم يقال له عبد الله بن أبي بكر خرج إلى عبد المؤمن مستأمناً وأطلعه

---

(١) في الأوربية: «عليه».

(٢) في الأوربية: «وبنا».

(٣) في الأوربية: شرف».

على عوراتهم وضعفهم، فقوي الطمع فيهم، واشتدّ عليهم البلاء، ونصب عليهم المنجنيقات والأبراج، وفنيت أقواتهم، وأكلوا دوابّهم، ومات من العامّة بالجوع ما يزيد على مائة ألف إنسان، فأنتن البلد من ريح الموتى.

وكان بمَرَّاكُش جيش من الفرنج كان المرابطون قد استنجدوا بهم، فجاءوا إليهم نجدةً، فلمّا طال عليهم الأمر راسلوا عبد المؤمن يسألون الأمان، فأجابهم إليه، ففتحوا له باباً من أبواب البلد يقال له باب أغمات، فدخلت عساكره بالسيف، وملكوا المدينة عنوةً، وقتلوا من وجدوا، ووصلوا إلى دار أمير المسلمين، فأخرجوا الأمير إسحاق وجميع من معه من أمراء المرابطين، فقُتلوا، وجعل إسحاق يرتعد رغبة في البقاء، ويدعو لعبد المؤمن ويبكي، فقام إليه الأمير سير بن الحاجّ، وكان إلى جانبه مكتوفاً، فبزق في وجهه، وقال: تبكي على أبيك وأمّك؟ اصبر صبر الرجال، فهذا رجل لا يخاف الله ولا يدين[1] بدين. فقام الموحّدون إليه بالخشب فضربوه حتّى قتلوه، وكان من الشجعان المعروفين بالشجاعة، وقُدّم إسحاق، على صغر سنّه، فضُربت عنقه سنة اثنتين وأربعين [وخمسمائة]، وهو آخر ملوك المرابطين وبه انقرضت دولتهم، وكانت مدّة ملكهم سبعين سنة، ووليَ منهم أربعة: يوسف وعليّ وتاشفين وإسحاق.

ولمّا فتح عبد المؤمن مَرَّاكُش أقام بها، واستوطنها واستقرّ ملكه. ولمّا قتل عبد المؤمن من أهل مَرَّاكُش فأكثر فيهم القتل اختفى كثير من أهلها، فلمّا كان بعد سبعة أيّام أمر فنودي بأمان من بقي من أهلها، فخرجوا، فأراد أصحابه المصامدة قتْلهم، فمنعهم، وقال: هؤلاء صنّاع، وأهل الأسواق مَن ننتفع به؛ فتُركوا، وأمر بإخراج القتلى من البلد، فأخرجوهم، وبنى[2] بالقصر جامعاً كبيراً، وزخرفه فأحسن عمله، وأمر بهدم الجامع الذي بناه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

ولقد أساء يوسف بن تاشفين في فعله بالمعتمد بن عبّاد، وارتكب بسجنه على الحالة المذكورة أقبح مركب، فلا جَرَمَ سلّط الله [عليه في] عقابه[3] مَنْ أربى في الأخذ عليه وزاد، فتبارك الحيّ الدائم الملك، الذي لا يزول ملكه، وهذه سُنّة الدنيا، فأُفّ لها، ثم أُفّ، نسأل الله أن يختم أعمالنا بالحُسنى، ويجعل خير أيّامنا يوم نلقاه بمحمّدٍ وآله.

---

(١) في الأوربية: «يدينه».
(٢) في الأوربية: «وبنا».
(٣) في الأوربية: «أعقابه».

ذكر ظفر عبد المؤمن بدكّالة

في سنة ثلاثٍ وأربعين وخمسمائة سار بعض المرابطين من الملثّمين إلى دَكّالة، فاجتمع إليه قبائلها، وصاروا يُغيرون على أعمال مَرّاكُش، وعبد المؤمن لا يلتفت إليهم، فلمّا كثُر ذلك منهم سار إليهم سنة أربع وأربعين [وخمسمائة]، فلمّا سمعت دَكّالة بذلك انحشروا كلّهم إلى ساحل البحر في مائتَيْ ألف راجل وعشرين ألف فارس، وكانوا موصوفين بالشجاعة.

وكان مع عبد المؤمن من الجيوش ما يخرج عن الحصر، وكان الموضع الذي فيه دَكّالة كثير الحجَر والحُزُونة، فكمّنوا فيه كمناء ليخرجوا على عبد المؤمن إذا سلكه، فمن الاتّفاق الحسن له أنّه قصدهم من غير الجهة التي فيها الكمناء، فانحلّ عليهم ما قدروه، وفارقوا ذلك الموضع، فأخذهم السيف، فدخلوا البحر، فقُتل أكثرهم، وغُنمت إبلهم وأغنامهم وأموالهم، وسُبِيَتْ نساؤهم وذراريّهم، فبيعت الجارية الحسناء بدراهم يسيرة، وعاد عبد المؤمن إلى مرّاكش مظفّراً منصوراً، وثبت ملكه، وخافه الناس في جميع المغرب، وأذعنوا له بالطاعة.

ذكر حصر مدينة كُتندة

في هذه السنة، يعني سنة أربع عشرة وخمسمائة، خرج ملك من ملوك الفرنج بالأندلس، يقال له ابن رُدْمير، فسار حتّى انتهى إلى كُتندة، وهي بالقرب من مُرسية، في شرق الأندلس، فحصرها، وضيّق على أهلها، وكان أمير المسلمين عليُّ بن يوسف حينئذ بقُرطُبة، ومعه جيش كثير من المسلمين والأجناد المتطوّعة، فسيّرهم إلى ابن رُدمير، فالتقوا واقتتلوا أشدّ القتال، وهزمهم ابن رُدمير هزيمة منكرة، وكثر القتل في المسلمين، وكان فيمن قُتل أبو عبد الله بن الفرّاء، قاضي المَريّة، وكان من العلماء العاملين، والزهّاد في الدنيا العادلين في القضاء[١].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة كسر بلكُ بن أُرتُق عفراسَ الروميّ، وقتل من الروم خمسة آلاف رجل (على قلعة سرمان من بلد اندكان (!)[٢])، وأُسر عفراس وكثير من عسكره.

---

(١) معجم البلدان ٤/ ٣١٠، دول الإسلام ٢/ ٤٢، تاريخ الإسلام (حوادث ٥١٤ هـ) ص ٢٨٥.

(٢) من نسخة بودليان.

وفيها أغار جوسلين الفرنجيُّ، صاحب الرُّها، على جيوش العرب والتركمان، وكانوا نازلين بصِفّين، غَربيّ الفُراتُ، وغنم من أموالهم وخيلهم ومواشيهم شيئاً كثيراً، ولمّا عاد خرّب بُزاعة[1].

وفيها تسلّم أتابك طغتكين، صاحب دمشق، مدينة تدمر والشقيف.

وفيها أمر السلطان محمود الأمير جيوش بك بالمسير إلى حرب أخيه طُغْرل، فسار إليه، فسمع طُغرل وأتابكه كنتغدي ذلك، فسارا إلى كَنْجَةَ من بين يدَي العسكر، ولم يَجْرِ قتالٌ.

[الوفيات]

وفيها، في المحرّم، توفّي خالصة الدولة أبو البركات أحمد بن عبد الوهّاب بن السيبيّ[2]، صاحب المخزن ببغداذ، ووليَ مكانه الكمال أبو الفتوح حمزة بن طلحة، المعروف بابن البقشلام، والد علم الدين الكاتب المعروف.

وفي جُمادى الأولى منها توفّي أبو سعد عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن القُشَيريُّ[3]، الإمام ابن الإمام، وكان أخذ العلم من قرابته[4]، والطريقة أيضاً، ثم استفاد أيضاً من إمام الحرمَيْن أبي المعالي الجُوَينيّ، سمع الحديث من جماعة، ورواه، وكان حَسَن الوعظ، وسريع الخاطر، ولمّا توفّي جلس الناس في البلاد البعيدة للعزاء به، حتّى في بغداذ برباط شيخ الشيوخ.

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ٢٠٣.

(٢) انظر عن (ابن السيبي) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥١٤ هـ.) ص ٣٦٢ رقم ٦٤، وفيه مصادر ترجمته.

(٣) انظر عن (القشيري) في: البداية والنهاية ١٢/١٨٧ وفيه: «عبد الرحيم بن عبد الكبير»، والمنتظم ١٧/١٩٠ رقم ٣٨٩٥، وشذرات الذهب ٤/٤٥.

(٤) في الأوربية: «قرابيه».

٥١٥
ثم دخلت سنة خمس عشرة وخمسمائة

ذكر إقطاع البُرسقيّ الموصل

في هذه السنة، في صفر، أقطع السلطان محمود مدينة الموصل وأعمالها، وما ينضاف إليها، كالجزيرة، وسِنجار، وغيرهما، الأمير آقسنقَر البُرسقيّ.

وسبب ذلك: أنّه كان في خدمة السلطان محمود، ناصحاً له، ملازماً له في حروبه كلّها، وكان له الأثر الحسن في الحرب المذكورة بين السلطان محمود وأخيه الملك مسعود، وهو الذي أحضر الملك مسعوداً[١] عند أخيه السلطان محمود، فعظم عند ذلك السلطان محمود، ولمّا حضر جيوش بك عند السلطان محمود وبقيت الموصل بغير أمير ولّى عليها البرسقيَّ، وتقدّم إلى سائر الأمراء بطاعته، وأمره بمجاهدة الفرنج وأخذ البلاد منهم، فسار إليها في عسكر كثير وملكها، وأقام يدبّر أمورها، ويصلح أحوالها[٢].

ذكر وفاة الأمير عليّ وولاية ابنه الحسن إفريقية

في هذه السنة توفّي الأمير عليُّ بن يحيى بن تميم، صاحب إفريقية، في العشر الأخير[٣] في ربيع الآخر، وكان مولده بالمهديّة، وقد تقدّم من حروبه وأعماله ما يُستدلّ به على علوّ همّته، ولمّا توفّي وليَ الملك بعده ابنه الحسن، بعهد أبيه، وقام بأمر دولته

---

(١) في الأوربية: «مسعود».

(٢) كتاب الروضتين ١/٧٣، الأعلاق الخطيرة ج ١ ق ١/١٣٣، المختصر في أخبار البشر ٢/٢٣٥، تاريخ الإسلام (حوادث ٥١٥ هـ.) ص ٢٨٩، ٢٩٠، تاريخ ابن الوردي ٢/٢٨، البداية والنهاية ١٢/١٨٨، عيون التواريخ ١٢/١٢٠.

(٣) في الأوربية: «الآخر».

صندل الخصيّ، لأنّه كان عمره حينئذ اثنتي عشرة سنة لا يستقلّ بتدبير الملك، فقام صندل في الحفظ والاحتياط، فلم تطُلْ أيّامه حتّى توفّي، فوقع الاختلاف بين أصحابه وقوّاده، كلّ منهم يقول: أنا المقدّم على الجميع، وبيدي الحلّ والشدّ؛ فلم يزالوا كذلك إلى أن فوّض أمور دولته إلى قائد من أصحاب أبيه يقال له أبو عزيز موفّق، فصلحت الأمور.

ذكر قتل أمير الجيوش

في هذه السنة، في الثالث والعشرين من رمضان، قُتل أمير الجيوش الأفضل بن بدر الجماليُّ، وهو صاحب الأمر والحكم بمصر، وكان ركب إلى خزانة السلاح ليفرّقه على الأجناد، على جاري العادة في الأعياد، فسار معه عالم كثير من الرجّالة والخيّالة، فتأذّى بالغبار، فأمر بالبعد عنه، وسار منفرداً، معه رجلان، فصادفه رجلان بسوق الصياقلة، فضرباه بالسكاكين فجرحاه، وجاء الثالث من ورائه، فضربه بسكّين في خاصرته، فسقط عن دابّته، ورجع أصحابه فقتلوا الثلاثة، وحملوه إلى دار الأفضل، فدخل عليه الخليفة، وتوجّع له، وسأل عن الأموال، فقال: أمّا الظاهر منها فأبو الحسن بن أُسامة الكاتب يعرفه، وكان من أهل حلب، وتولّى أبوه قضاء القاهرة، وأمّا الباطن[1] فابن البطائحيّ يعرفه؛ فقالا: صدق.

فلمّا توفّي الأفضل نُقل من أمواله ما لا يعلمه إلاّ الله تعالىٰ، وبقي الخليفة في داره نحو أربعين يوماً، والكتّاب بين يدَيْه، والدوابّ تحمل وتنقل ليلاً ونهاراً، ووُجد له من الأعلاق النفيسة، والأشياء الغريبة القليلة الوجود، ما لا يوجد مثله لغيره، واعتُقل أولاده، وكان عمره سبعاً[2] وخمسين سنة، وكانت ولايته بعد أبيه ثمانياً[3] وعشرين سنة، منها: آخر أيّام المستنصر، وجميع أيّام المُسْتَعلي، إلى هذه السنة من أيّام الآمر.

وكان الإسماعيليّة يكرهونه لأسباب، منها: تضييقه[4] على إمامهم، وتركه ما يجب عندهم سلوكه معهم، ومنها: ترْك معارضة أهل السُّنّة في اعتقادهم، والنهي عن معارضتهم، وإذنه للناس في إظهار معتقداتهم والمناظرة عليها، فكثر الغرباء ببلاد مصر.

---

(١) في الأوربية: «الباطنة».
(٢) في الأوربية: «سبع».
(٣) في الأوربية: «ثمان».
(٤) في الأوربية: «تضئيعه».

وكان حَسَن السيرة، عادلاً، حُكِي أنّه لمّا قُتل، وظهر الظلم بعده، اجتمع جماعة واستغاثوا بالخليفة[1]، وكان من جملة قولهم: إنّهم لعنوا الأفضل، فسألهم عن سبب لعنهم إيّاه، فقالوا: إنّه عدل، وأحسن السيرة، ففارقنا بلادنا وأوطاننا، وقصدنا بلده لعدله، فقد أصابنا بعده هذا الظلم، فهو كان سبب ظلمنا. فأحسن الخليفة إليهم، وأمر بالإحسان إلى الناس.

ومنها: أنّ صاحبه الآمر بأحكام الله، صاحب مصر، وضع منه[2]، وسبب ذلك ما ذكرناه قبلُ، ففسد الأمر بينهما، فأراد الآمر أن يضع عليه من يقتله إذا دخل عليه قصره للسّلام، أو في أيّام الأعياد، فمنعه من ذلك ابن عمّه أبو الميمون عبد المجيد، وهو الذي وليَ الأمر بعده بمصر، وقال له: في هذا الفعل شناعة، وسوء سُمعة، لأنّه قد خدم دولتنا هو وأبوه خمسين سنة، ولم يعلم الناس منهما إلاّ النُّصح لنا، والمحبّة لدولتنا، وقد سار ذلك في أقطار البلاد، فلا يجوز أن يظهر منّا هذه المكافأة الشنيعة، ومع هذا فلا بدّ وأن نقيم غيره مكانه ونعتمد عليه في منصبه، متمكّن مثله، أو ما يقاربه، فيخاف أن نفعل به مثل فعلنا بهذا، فيحذر من الدخول إلينا خوفاً على نفسه، وإن دخل علينا كان خائفاً مستعدّاً للامتناع، وفي هذا الفعل منهم ما يُسقط المنزلة، والرأي أن تراسل أبا عبد الله بن البطائحيّ، فإنّه الغالب على أمر الأفضل، والمطّلع على سرّه، وتَعِده أن تولّيه منصبه، وتطلب منه أن يدبّر الأمر في قتله لمن يقاتله، إذا ركب، فإذا ظفرنا بمن قتله قتلناه، وأظهرنا الطلب بدمه، والحزن عليه، فنبلغ غرضنا، ويزول عنّا قبح الأحدوثة. ففعلوا ذلك فقُتل كما ذكرناه.

ولمّا قُتل وليَ بعده أبو عبد الله بن البطائحيّ الأمر، ولُقّب المأمون، وتحكّم في الدولة، فبقي كذلك حاكماً في البلاد إلى سنة تسع عشرة [وخمسمائة]، فصُلب كما نذكره إن شاء الله تعالى[3].

ذكر عصيان سليمان بن إيلغازي على أبيه

في هذه السنة عصى[4] سليمان بن إيلغازي بن أُرتُق على أبيه بحلب، وقد جاوز عمره عشرين سنة، حمله على ذلك جماعة مَن عنده، فسمع والده الخبر، فسار مُجِدّاً

---

(١) في الأوربية: «إلى الخليفة».

(٢) في الأوربية: «عليه».

(٣) انظر عن (الأفضل) في تاريخ الإسلام (وفيات ٥١٥ هـ) ص ٣٨٥ ـ ٣٨٨ رقم ٩٢، وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٤) في الأوربية: «عصا».

لوقته، فلم يشعر به سليمان حتّى هجم عليه، فخرج إليه معتذراً، فأمسك عنه، وقبض على من كان أشار عليه بذلك[1]، منهم: أمير كان قد التقطه أُرتُق، والد إيلغازي، وربّاه، اسمه ناصر، فقلع عينَيْه، وقطع لسانه، ومنهم: إنسان من أهل حماة من بيت قرناص، كان قد قدّمه إيلغازي على أهل حلب، وجعل إليه الرئاسة، فجازاه بذلك، وقطع يدَيْه ورِجْلَيْه، وسمل عينَيْه، فمات.

وأحضر ولده، وهو سكران، فأراد قتله، فمنعته رقّة الوالد، فاستبقاه، فهرب إلى دمشق، فأرسل طُغتِكين يشفع فيه، فلم يُجِبه إلى ذلك، واستناب بحلب سليمان ابن أخيه عبد الجبّار بن أُرتُق، ولقّبه بدر الدولة، وعاد إلى ماردين[2].

ذكر إقطاع ميّافارقين إيلغازي

في هذه السنة أقطع السلطان محمود مدينة ميّافارقين للأمير إيلغازي.

وسبب ذلك أنّه أرسل ولده حُسام الدين تمرتاش، وعمره سبع عشرة سنة، إلى السلطان ليشفع في دُبَيْس بن صدقة، ويبذل عنه الطاعة، وحَمْل الأموال، والخَيْل، وغيرها، وأن يضمن الحلّة كلّ يوم بألف دينار وفرس؛ وكان المتحدّث عنه القاضي بهاء الدين أبو الحسن عليّ بن القاسم بن الشهرزوريّ، فتردّد الخطاب في ذلك، ولم ينفصل حال، فلمّا أراد العود أقطع السلطان أباه مدينة ميّافارقين، وكانت مع الأمير سُكمان، صاحب خِلاط، فتسلّمها إيلغازي، وبقيت في يده، ويد أولاده، إلى أن ملكها صلاح الدين يوسف بن أيّوب سنة ثمانين وخمسمائة، وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالىٰ.

ذكر حصر بَلْك بن بَهرام الرُّها وأسر صاحبها

في هذه السنة سار بَلْك بن بَهرام، ولد أخي إيلغازي، إلى مدينة الرُّها، فحصرها وبها الفرنج، وبقي على حصرها مدّة، فلم يظفر بها، فرحل عنها، فجاءه إنسان تركمانيّ وأعلمه أنّ جوسلين، صاحب الرُّها وسَروج، قد جمع مَن عنده من الفرنج، وهو عازم على كبسه، وكان قد تفرّق عن بَلْك أصحابه، وبقي في أربعمائة فارس، فوقف مستعدّاً لقتالهم.

---

(١) في الأوروبية: «ذلك».

(٢) زبدة الحلب ٢/ ٢٠٠، نهاية الأرب ٢٧/ ٧٦، المختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٣٥، تاريخ الإسلام (حوادث ٥١٥ هـ.) ص ٢٩٠، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٨.

وأقبل الفرنج، فمن لطف الله تعالىٰ بالمسلمين أنّ الفرنج وصلوا إلى أرض قد نضب عنها الماء، فصارت وحلاً وغاصتْ خيولهم فيه فلم تتمكّن، مع ثقل السلاح والفرسان، من[1] الإسراع والجري، فرماهم أصحاب بلك بالنشّاب، فلم يفلتْ منهم أحد، وأُسر جوسلين وجُعل في جلد جمل، وخُيّط عليه، وطُلب منه أن يسلّم الرُّها، فلم يفعل، وبذل في فداء نفسه أموالاً جزيلة، وأسرى كثيرة، فلم يجبْهُ إلى ذلك، وحمله إلى قلعة خَرْتَبِرْتَ فسجنه بها، وأسر معه ابن خالته، واسمه كليام، وكان من شياطين الكفّار، وأسر أيضاً جماعة من فرسانه المشهورين، فسجنهم معه.

[الوفيات]

في هذه السنة توفّيت جدّة السلطان[2] محمود لأبيه، وهي[3] والدة السلطان سنجَر، وكانت تركيّة تُعرف بخاتون السفريّة، وكان موتها بمرو، فجلس محمود ببغداذ للعزاء بها، وكان عزاء لم يشاهد مثله الناس.

وفيها توفّي الخطير محمّد بن الحسين المَيْبُذيُّ ببلاد فارس، وهو في وزارة الملك سلجوق ابن السلطان محمّد، وكان قديماً وَزَر للسلطانَيْن بركْيارُق ومحمّد، وكان جواداً حليماً، سمع أنّ الأبيوَرْديَّ هجاه، فلمّا سمع الهجو مضّه، فعضّ على إبهامه، وصفح عنه، وخلع عليه ووصله.

وفيها توفّي الشهاب أبو المحاسن عبد الرزّاق بن عبد الله وزير السلطان سنجَر، وهو ابن أخي نظام المُلك، وكان يتفقّه قديماً على إمام الحرمَيْن الجُوينيّ فكان يُفتي ويوقّع، ووَزَر بعده أبو طاهر سعد بن عليّ بن عيسى القُمّيُّ، وتوفّي بعد شهور، فوَزَر بعده عثمان القُمّيُّ.

[ذكر عدّة حوادث]

وفيها، في جمادى الأولى، أوقع أتابك طغتِكين بطائفة من الفرنج، فقتل منهم وأسر وأرسل من الأسرى والغنيمة للسلطان وللخليفة.

وفيها تضعضع الركن اليَمانيُّ من البيت الحرام، زاده الله شرفاً، من زلزلة، وانهدم

---

(١) في الأوربية: «على».

(٢) المنتظم ٩/ ٢٢٢ (١٧/ ١٩٢)، تاريخ الإسلام (حوادث ٥١٥ هـ.) ص ٢٨٦.

(٣) في الأوربية: «وهو».

بعضه، وتشعّث بعض حرم النبيّ ﷺ، وتشعّث غيرها من البلاد، وكان بالموصل كثير منها[(١)].

وفيها احترقت دار السلطان، كان قد بناها مجاهد الدين بهروز للسلطان محمّد، ففرغتْ قبل وفاته بيسير، فلمّا كان الآن احترقت.

وسبب الحريق أنّ جارية كانت تختضب ليلاً، فأسندت شمعة إلى الخيش فاحترق، وعلقت النار منه في الدار، واحترق فيها من زوجة السلطان محمود بنت السلطان سنجَر ما لا حدّ له[(٢)] من الجواهر، والحلى، والفرش، والثياب، وأقيم الغسّالون يخلّصون الذهب وما أمكن تخليصه، وكان الجوهر جميعه قد هلك إلاّ الياقوت الأحمر.

وترك السلطان الدار لم تجدّدْ عمارتها، وتطيَّرَ منها، لأنّ أباه لم يتمتّع بها، ثم احترق فيها، من أموالهم، الشيء العظيم، واحترق قبلها بأسبوع جامع أصبهان، وهو من أعظم الجوامع وأحسنها، أحرقه قوم من الباطنيّة ليلاً، وكان السلطان قد عزم على أخذ حقّ البيع، وتجديد المكوس بالعراق، بإشارة الوزير السميرميّ عليه بذلك، فتجدّد من هذَيْن الحريقَيْن ما هاله، واتّعظ فأعرض عنه[(٣)].

وفيها، في ربيع الآخر، انقضّ كوكب عِشاء، وصار له نور عظيم، وتفرّق منه أعمدة عند انقضاضه، وسُمع عند ذلك صوت هدّة عظيمة كالزلزلة[(٤)].

وفيها ظهر بمكّة إنسان علويٌّ، وأمر بالمعروف، فكثُر جمعه، ونازع أميرَ مكّة ابن أبي هاشم، وقوي أمره، وعزم على أن يخطب لنفسه، فعاد ابن أبي هاشم وظفر به، ونفاه عن الحجاز إلى البحرَيْن، وكان هذا العلويُّ من فقهاء النظاميّة ببغداذ.

وفيها ألزم السلطان أهل الذمّة ببغداذ بالغِيار، فجرى فيه مراجعات انتهت إلى أن قُرّر عليهم للسلطان عشرون[(٥)] ألف دينار، وللخليفة أربعة آلاف دينار.

---

(١) البداية والنهاية ١٢/١٨٨، كشف الصلصلة ١٨٢، ١٨٣.

(٢) في الأوربية: «عليه».

(٣) المنتظم ٩/٢٢٣، ٢٢٤ (١٧/١٩٤)، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/٩٦، العبر ٤/٣٤، تاريخ الإسلام (حوادث ٥١٥ هـ.) ص ٢٨٧، مرآة الجنان ٣/٢١١، عيون التواريخ ١٢/١٢٠، الكواكب الدرية ٨٦، ٨٧، شذرات الذهب ٤/٤٧.

(٤) المنتظم ٩/٢٢٣ (١٧/١٩٣)، تاريخ الإسلام ٢٨٦، الكواكب الدرية ٨٦.

(٥) في الأوربية: «عشرين».

وفيها حضر السلطان محمود وأخوه الملك مسعود عند الخليفة، فخلع عليهما، وعلى جماعة من أصحاب السلطان، منهم: وزيره أبو طالب السميرميُّ، وشمس المُلك عثمان بن نظام المُلك، والوزير أبو نصر أحمد بن محمّد بن حامد المستوفي، وعلى غيرهم من الأمراء.

وفيها، في ذي القعدة، وهو الحادي والعشرون من كانون الثاني، سقط بالعراق جميعه من البصرة إلى تكريت ثلج كثير، وبقي على الأرض خمسة عشر يوماً، وسمكه ذراع، وهلكت أشجار النارنْج، والأُترجّ، والليمون، فقال فيه بعض الشعراء:

يا صُدُورَ الزمانِ ليس بوَفْرِ ... ما رأيناه في نواحي العراقِ
إنّما عمَّ ظلمُكم سائرَ الخَلـ ... ـقِ فشابَت ذَوائِبُ الآفاقِ[1]

وفيها هبّت بمصر ريح سوداء ثلاثة أيّام، فأهلكت كثيراً من الناس، وغيرهم من الحيوانات.

[الوفيات]

وفيها توفّي أبو محمّد القاسم بن عليّ بن محمّد بن عثمان الحريريُّ[2]، صاحب المقامات المشهورة.

وهزارسب[3] بن عِوَض الهرويُّ، وكان قد سمع الحديث كثيراً.

---

(١) مرآة الزمان ج ٨ ق ٩٨/١، تاريخ الإسلام (حوادث ٥١٥ هـ.) ٢٨٩، الكواكب الدرّية ٨٧، وانظر المنتظم ١٩٦/١٧، ١٩٧.

(٢) انظر عن (الحريري) في: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٦٠ ـ ٤٦٥ رقم ٢٦٨، وفيه مصادر ترجمته الكثيرة.

(٣) انظر عن (هزارسب) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥١٥ هـ.) ص ٣٩٥، ٣٩٦ رقم ١٠٥، وفيه مصادر ترجمته.

٥١٦
ثم دخلت سنة ست عشرة وخمسمائة

ذكر طاعة الملك طغرل لأخيه السلطان محمود

وفي المحرّم من هذه السنة أطاع الملك طُغرل أخاه السلطان محموداً[١]، وكان قد خرج عن طاعته، كما ذكرناه، وقصد أَذَرْبيجان في السنة الخالية ليتغلّب عليها، وكان أتابكه كنتغدي يحسّن له ذلك، ويقوّيه عليه، فاتّفق أنّه مرض، وتوفّي في شوّال سنة خمس عشرة [وخمسمائة].

وكان الأمير آقنسقَر الأحمديليّ، صاحب مَراغة، عند السلطان محمود ببغداذ، فاستأذنه في المُضِيّ إلى إقطاعه، فأذِن له، فلمّا سار عن السلطان ظنّ أنّه يقوم مقام كنتغدي من الملك طُغرل، فسار إليه، واجتمع به، وأشار عليه بالمكاشفة لأخيه السلطان محمود، وقال له: إذا وصلتَ إلى مَراغة اتّصل بك عشرة آلاف فارس وراجل. فسار معه، فلمّا وصلوا إلى أرْدَبيل أُغلقت أبوابها دونهم، فساروا عنها إلى قريب تِبريز، فأتاهم الخبر أنّ السلطان محموداً[١] سيّر الأمير جيوش بك إلى أذربيجَانَ، وأقطعه البلاد، وأنّه نزل مَراغة في عسكر كثيف من عند السلطان.

فلمّا تيقّنوا ذلك عدلوا إلى خُوَنْج، وانتقض عليهم ما كانوا فيه، وراسلوا الأمير شيركير الذي كان أتابَك طُغرل، أيّام أبيه، يدعونه إلى إنجادهم، وقد كان كنتغدي قبض عليه بعد موت السلطان محمّد على ما ذكرناه، ثم أطلقه السلطان سنجَر، فعاد إلى إقطاعه، أبْهَرَ، وزَنْجَانَ، وكاتبوه فأجابهم، واتّصل بهم، وسار معهم إلى أبْهَر، فلم يتمّ لهم ما أرادوا، فراسلوا السلطان بالطاعة، فأجابهم إلى ذلك، فاستقرّت القاعدة أوّل هذه السنة، وتمّت.

---

(١) في الأوربية: «محمود».

ذكر حال دُبَيْس بن صدقة وما كان منه

قد ذكرنا سنة أربع عشرة [وخمسمائة] حال دُبَيْس بن صدقة، وصُلحه على يد يرنقُش الزكويّ، ومقامه بالحِلّة، وعَود يرنقُش إلى السلطان ومعه منصور بن صدقة، أخو دُبيس وولده رهينةً، فلمّا علم الخليفة بذلك لم يرضَ به، وراسل السلطانَ محموداً[1] في إبعاد دُبَيْس عن العراق إلى بعض النواحي.

وتردّد الخطاب في ذلك، وعزم السلطان على المسير إلى همَذان، فأعاد الخليفة الشكوى من دُبَيْس، وذكر أنّه يطالب الناس بحقوقه، منها قتْل أبيه؛ وأشار[2] أن يُحضر السلطان آقسنقَر البرسقيَّ من الموصل، ويولّيه شِحنكيّة بغداذ والعراق، ويجعله في وجه دُبَيْس، ففعل السلطان ذلك، وأحضر البرسقيّ، فلمّا وصل إليه زوّجه والدة الملك مسعود، وجعله شِحنة بغداذ، وأمره بقتال دُبَيْس إن تعرّض للبلاد.

وسار السلطان عن بغداذ في صفر من هذه السنة، وكان مُقامه ببغداذ سنةً وسبعة أشهر وخمسة عشر يوماً، فلمّا فارق بغداذ والعراق تظاهر دُبَيْس بأمور تأثّر بها المسترشد بالله، وتقدّم إلى البرسقيّ بالمسير إليه، وإزعاجه عن الحِلّة، فأرسل البرسقيّ إلى الموصل، وأحضر عساكره، وسار إلى الحِلّة، وأقبل دُبَيْس نحوه، فالتقوا عند نهر بَشِير، شرقيّ الفرات، واقتتلوا، فانهزم عسكر البرسقيّ.

وكان سبب الهزيمة أنّه رأى في ميسرته خللاً، وبها الأمراء البكجيّة؛ فأمر بإلقاء خيمته، وأن تُنصَب عند الميسرة، ليقوّي قلوب من بها، فلمّا رأوا الخيمة وقد سقطت ظنّوها عن هزيمة، فانهزموا، وتبَعهم الناس والبرسقيُّ.

وقيل: بل أُعطي رقعة فيها: إنّ جماعةً من الأمراء، منهم إسماعيل البكجيُّ، يريدون الفتك به، فانهزم، وتبِعه العسكر، ودخل بغداذ ثاني ربيع الآخر، وكان في جملة العسكر نصر بن النفيس بن مهذّب الدولة أحمد بن أبي الجبر، وكان ناظراً بالبطيحة لريحان محكوَيْه، خادم السلطان، لأنّها كانت من جملة إقطاعه، وحضر أيضاً المظفّر بن حمّاد بن أبي الجبر، وبينهما عداوة شديدة، فالتقيا عند الانهزام بساباط نهر ملك، فقتله المظفّر ومضى[3] إلى واسط، وسار منها إلى البطيحة، وتغلّب عليها وكاتب دُبَيْساً وأطاعه.

---

(١) في الأوربية: «محمود».

(٢) في الأوربية: «وأخبار».

(٣) في الأوربية: «ومضا».

وأمّا دُبَيْس فإنّه لم يعرض لنهر ملك، ولا غيره، وأرسل إلى الخليفة أنّه على الطاعة، ولولا ذلك لأخذ البرسقيّ وجميع مَن معه، وسأل أن يخرج الناظر إلى القُرى التي لخاصّ الخليفة لقبض دَخْلها.

وكانت الوقعة في حزيران[1]، وحمَى البلد، فأحمد الخليفة فعله، وتردّدت الرسل بينهما، فاستقرّت القاعدة أن يقبض المسترشد بالله على وزيره جلال الدين أبي عليّ بن صدقة ليعود إلى الطاعة، فقبض على الوزير، ونُهبت داره ودور أصحابه والمنتمين إليه، وهرب ابن أخيه جلال الدين أبو الرضا إلى الموصل.

ولـمّا سمع السلطان خبر الوقعة قبض على منصور بن صدقة، أخي دُبَيْس، وولده، ورفعهما إلى قلعة برحين وهي تجاور كَرَج.

ثم إنّ دُبَيْساً أمر جماعة من أصحابه بالمسير إلى أقطاعهم بواسط، فساروا إليها، فمنعهم أتراك واسط، فجهّز دُبَيْس إليهم عسكراً مقدّمهم مُهلهِل بن أبي العسكر، وأرسل إلى المظفّر بن أبي الجبر بالبطيحة ليتّفق مع مهلهِل ويساعده على قتال الواسطيّين، فاتّفقا على أن تكون الوقعة تاسع رجب، وأرسل الواسطيّون إلى البرسقيّ يطلبون منه المدد، فأمدّهم بجيش من عنده، وعجل مُهلهِل في عسكر دُبَيْس، ولم ينتظر المظفّر ظنّاً منه أنّه بمفرده ينال منهم ما أراد[2]، وينفرد بالفتح، فالتقى هو والواسطيّون، ثامن رجب، فانهزم مُهَلهِل وعسكره، وظفر الواسطيّون، وأُخذ مُهلهِل أسيراً وجماعة من أعيان العسكر، وقُتل ما يزيد على ألف قتيل، ولم يُقتل من الواسطيّين غير رجل واحد.

وأمّا المظفّر بن أبي الجبر، فإنّه أصعد من البطيحة ونهب وأفسد، وجرى من أصحابه القبيح، فلمّا قارب واسطاً سمع بالهزيمة، فعاد منحدراً.

وكان في جملة ما أخذ العسكر الواسطيُّ من مُهلهِل تذكرة بخطّ دُبَيْس يأمره فيها بقبض المظفّر بن أبي الجبر ومطالبته بأموال كثيرة أخذها من البطيحة، فأرسلوا الخطّ إلى المظفّر، وقالوا: هذا خطّ الذي تختاره، وقد أسخطتَ الله تعالىٰ والخلق كلّهم لأجله؛ فمال إليهم وصار معهم، فلمّا جرى على أصحاب دُبَيْس من الواسطيّين ما ذكرناه شمّر عن ساعده[3] في الشرّ، وبلغه أنّ السلطان كحل أخاه، فجزّ شعره، ولبس السواد، ونهب البلاد، وأخذ كلّ ما للخليفة بنهر الملك، فأجلى الناس إلى بغداذ.

---

(١) في الأوربية: «الحزيران».

(٢) في الأوربية: «أرادوا».

(٣) في الأوربية: «ساعد».

وسار عسكر واسط إلى النّعمانيّة، فأجلوا عنها عسكر دُبَيْس واستولوا عليها، وجرى بينهم هناك وقعة كان الظفر [فيها] للواسطيّين، وتقدّم الخليفة إلى البرسقيّ بالتبريز إلى حرب دُبَيْس، فبرّز في رمضان، وكان ما نذكره إن شاء الله تعالىٰ[١].

ذكر قتل السُّميرميّ

وفي هذه السنة قُتل الوزير الكمال أبو طالب السُّميرميُّ، وزير السلطان محمود، سلْخ صفر، وكان قد برز مع السلطان ليسير إلى همَذان، فدخل إلى الحمّام، وخرج بين يدَيْه الرجّالة والخيّالة، وهو في موكبٍ عظيم، فاجتاز بسوق المدرسة التي بناها خُمارتِكين التُّتُشيُّ، واجتاز في منفذٍ ضيّق فيه حظائر الشوك، فتقدّم أصحابه لضِيق الموضع، فوثب عليه باطنيٌّ وضربه بسكّين، فوقعت في البغلة، وهرب إلى دجلة، وتبِعه الغلمان، فخلا الموضع، فظهر رجل آخر فضربه بسكّين في خاصرته، وجذبه عن البغلة إلى الأرض، وضربه عدّة ضربات.

وعاد أصحاب الوزير، فحمل عليهم رجلان باطنيّان، فانهزموا منهما، ثم عادوا وقد ذُبِحَ الوزير مثل الشاة، فحُمل قتيلاً وبه نيّف وثلاثون جراحة، وقُتل قاتلوه.

ولمّا كان في الحمّام كان المنجّمون يأخذون له الطالع ليخرج، فقالوا: هذا وقت جيّد، وإن تأخّرتَ يفت[٢] طالع السعد؛ فأسرج وركب، وأراد أن يأكل طعاماً، فمنعوه لأجل الطالع، فقُتل ولم ينفعه قولهم.

وكانت وزارته ثلاث سنين وعشرة أشهر، وانتُهب ماله، وأخذ السلطان خزانته، ووزر بعده شمس المُلك بن نظام المُلك.

وكانت زوجة السُّميرميّ قد خرجت هذا اليوم في موكب كبير، معها نحو مائة جارية، وجَمْع من الخدم، والجميع بمراكب الذهب، فلمّا سمعن بقتله عُدْنَ حافيات حاسرات، وقد تبدّلن بالعزّ هواناً، وبالمَسَرّة أحزاناً، فسبحان من لا يزول ملكه[٣].

وكان السُّميرميّ ظالماً، كثير المصادرة للناس، سيء السيرة، فلمّا قُتل أطلق السلطان ما كان جدّده من المكوس، وما وضعه على التجار والباعة[٤].

---

(١) المنتظم ٩/٢٣٣، ٢٣٤ (١٧/٢٠٥، ٢٠٦)، الفخري ٣٠٥، تاريخ الإسلام (حوادث ٥١٦ هـ.) ص ٢٩٢.

(٢) في الأوربية: «يفوت».

(٣) في الأوربية: «مالكاً».

(٤) المنتظم ٩/٢٣٩، ٢٤٠ رقم ٣٩٠ (١٧/٢١٢، ٢١٣ رقم ٣٩١٢)، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/١٠١، تاريخ =

ذكر القبض على ابن صدقة وزير
الخليفة ونيابة عليّ بن طِراد

في جُمادى الأولى قبض الخليفة على وزيره جلال الدين بن صدقة، وقد تقدّم ذِكره قبلُ، وأُقيم نقيب النقباء شرف الدين عليُّ بن طِراد الزينبيُّ في نيابة الوزارة، فأرسل السلطان إلى المسترشد بالله في معنى الوزارة نظام المُلك أبي نصر أحمد بن نظام المُلك، وكان أخو شمس المُلك عثمان بن نظام المُلك وزير السلطان محمود، فأُجيب إلى ذلك، واستوزر في شعبان.

وكان قد وزر للسلطان محمّد سنة خمسمائة، ثم عُزل، ولزِم داراً استجدّها ببغداذ إلى الآن. فلمّا خُلع على نظام المُلك، وجلس في الديوان، طلب أن يخرج ابنُ صدقة عن بغداذ، فلمّا علم ابن صدقة ذلك طلب من الخليفة أن يُسيّر إلى حديثة عانة ليكون عند الأمير سليمان بن مُهارش، فأُجيب إلى ما طلب.

وسار إلى الحديثة، فخرج عليه في الطريق إنسان من مفسدي التركمان يقال له يُونُس الحراميّ، فأسره ونهب أصحابه، فخاف الوزير أن يعلم دُبَيْس فأرسل إلى يُونُس وبذل له مالاً يأخذه منه للعداوة التي بينهما، فقرّر أمره مع يونُس على ألف دينار يعجّل منها ثلاثمائة، ويؤخّر الباقي إلى أن يرسله من الحديثة.

وراسل عامل بلد الفُرات في تخليصه، وإنفاذ من يَضْمن الباقي الذي عليه، فأعمل العامل الحيلة في ذلك، فأحضر إنساناً فلاّحاً وألبسه ثياباً فاخرة وطَيلساناً، وأركبه وسيّر معه غلماناً، وأمره أن يمضي إلى يونُس ويدّعي أنّه قاضي بلد الفُرات، ويضمن الوزير منه بما بقي[1] من المال، فسار السواديّ إلى يُونُس، فلمّا حضر عند الوزير ويُونُس احترماه، وضمن السواديُّ الوزير منه، وقال له: أُقيم عندك إلى أن يصل المال مع صاحبٍ لك تُنفِذه مع الوزير؛ فاعتقد يونس صِدق ذلك وأطلق الوزير ومعه جماعة من أصحابه، فلمّا وصل الحديثة قبض على مَن معه منهم، فأطلق يونس ذلك السواديّ، والمال الذي أخذه، حتّى أطلق الوزير أصحابه، وعلم الحيلة التي تمّت عليه.

ولمّا سار الوزير من عند يونس لقي إنساناً أنكره، فأخذه، فرأى معه كتاباً من

= الإسلام (حوادث ٥١٦ هـ) ص ٢٩٥، و (وفيات ٥١٦ هـ.) ص ٤٠٢ رقم ١١٥)، البداية والنهاية ١٢/ ١٩٠.

(١) في الأوربية: «باقي».

دُبَيْس إلى يونُس يبذل ستّة آلاف دينار ليسلّم الوزير إليه، وكان خلاصه من أعجب الأشياء[1].

ذكر قتل جيوش بك

في هذه السنة قُتل الأمير جيوش بك الذي كان صاحب الموصل، وقد ذكرنا خروجه على السلطان محمود، وعَوده إلى خدمته، فلمّا رضي عنه أقطعه أَذْرَبيجان وجعله مقدّم عسكره، فجرى بينه وبين جماعة من الأمراء منافرة ومنازعات، فأغروا به السلطان، فقتله في رمضان على باب تِبرِيز.

وكان تركيّاً من مماليك السلطان محمّد، عادلاً، حسن السيرة، ولمّا وليَ الموصل والجزيرة كان الأكراد بتلك الأعمال قد انتشروا، وكثُر فسادهم، وكثُرت قِلاعهم، والناس معهم في ضِيق، والطريق خائفة، فقصدهم، وحصر قلاعهم، وفتح كثيراً منها ببلد الهَكّارِيّة، وبلد الزَّوْزان، وبلد البَشْنويّة، وخافه الأكراد، وتولّى قصدهم بنفسه، فهربوا منه في الجبال والشِعاب والمضايق، وأمِنت الطرق، وانتشر الناس واطمأنّوا، وبقي الأكراد لا يجسرون أن يحملوا السلاح لهيبته[2].

ذكر وفاة إيلغازي وأحوال حلب بعده

في هذه السنة، في شهر رمضان، توفّي إيلغازي بن أُرتُق بميّافارقين، وملك ابنه حسام الدين تمرتاش قلعة ماردين، وملك ابنه سليمان ميّافارقين، وكان بحلب ابن أخيه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبّار بن أُرتُق، فبقي بها إلى أن أخذها ابن عمّه[3].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة أقطع السلطان محمود الأميرَ آقسنقَر مدينةَ واسط وأعمالها، مضافاً إلى ولاية الموصِل وغيرها ممّا بيده، وشِحنكيّة العراق، فلمّا أقطعها البرسقيّ سيّر إليها

---

(١) المنتظم ٩/ ٢٣٣، ٢٣٤ (١٧/ ٢٠٥، ٢٠٦)، تاريخ دولة آل سلجوق ١٠٨، الفخري ٣٠٥، تاريخ الإسلام (حوادث ٥١٦ هـ.) ص ٢٩٢، ٢٩٣، البداية والنهاية ١٢/ ١٩٠، عيون التواريخ ١٢/ ١٣٠.

(٢) المختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٣٦، تاريخ الإسلام ٢٩٥، ٢٩٦.

(٣) تاريخ مختصر الدول ٢٠٢، زبدة الحلب ٢/ ٢٠٦، ذيل تاريخ دمشق ٢٠٨، الأعلاق الخطيرة ج ٣ ق ١/ ٥٤، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١٠٢، نهاية الأرب ٢٧/ ٧٧، المختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٣٦، الدرّة المضيّة ٤٩٠، العبر ٤/ ٣٦، دول الإسلام ٢/ ٤٣، تاريخ الإسلام ٢٩٦، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٩، النجوم الزاهرة ٥/ ٢٢٣، شذرات الذهب ٤/ ٤٨.

عماد الدين زنكي بن آقسنقَر الذي كان والده صاحب حلب، وأمره بحمايتها، فسار إليها في شعبان ووليها، وقد ذكرنا أخبار زنكي في كتاب «الباهر»[١] في ذكر ملكه وملك أولاده الذين هم ملوكنا الآن، فيُنْظَر منه.

وفيها ظهر مَعْدِن نُحاس بديار بكر قريباً من قلعة ذي القرنَيْن.

وفيها زاد الفرات زيادة عظيمة لم يُعهَد مثلها، فدخل الماء إلى ربض قلعة جَعْبَر، وكان الفرات، حينئذٍ، بالقرب منها، فغرق أكثر دُوره ومساكنه، وحمل فرساً من الربض وألقاه من فوق السور إلى الفرات[٢].

وفيها بُنيت مدرسة بحلب لأصحاب الشافعيّ.

وفيها توفّيت ابنة السلطان سنجَر زوج السلطان محمود.

وفيها، في شعبان، قدِم إلى بغداذ البرهان أبو الحسن عليّ بن الحسين الغزنويُّ ووعد مجلس الوعظ في جميع المواضِع، وورد بعده أبو القاسم عليُّ بن يَعْلَى العلويُّ، ونزل رباط شيخ الشيوخ، فوعظ في جامع القصر، والتاجيّة، ورباط سعادة، وصار له قبولٌ عند الحنابلة، وحصل له مال كثير لأنّه أظهر موافقتهم.

وورد بعده أبو الفتوح الإسْفَرَايينيُّ، ونزل برباط شيخ الشيوخ أيضاً، ووعظ في هذه المواضع، وفي النِّظاميّة، وأظهر مذهب الأشعريّ، فصار له قبول كثير عند الشافعيّة، وحضر مجلسه الخليفة المسترشد بالله، وسلّم إليه رباط الأرجُونِيّةِ، والدة المقتدي بالله، بدرب زاخي[٣].

[الوفيات]

وفيها توفّي عبد الله بن أحمد بن عمر أبو محمّد السمرقنديُّ[٤]، أخو أبي القاسم بن السمرقنديّ، ومولده بدمشق سنة أربع وأربعين وأربعمائة، ونشأ ببغداذ، وسمع الصَّرِيفِينيَّ وابن النُّقور، وغيرهما، وسافر الكَثير، وكان حافظاً للحديث عالماً به.

---

(١) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ـ تحقيق عبد القادر أحمد طليمات ـ مصر ١٩٦٣.

(٢) المنتظم ١٧/ ٢٠٣.

(٣) المنتظم ٩/ ٢٣٨ (١٧/ ٢١٠)، تاريخ الإسلام ٢٩٦.

(٤) انظر عن (السمرقندي) في: تذكرة الحفاظ ١٢٦٣، البداية والنهاية ١٢/ ١٩١، المنتظم ١٧/ ٢١١، شذرات الذهب ٤/ ٤٩، وورد اسمه في فهرس التراجم من كتاب: المقتدر في ذكر علماء سمرقند، ص ٥٦٦، في السطر الثالث قبل الأخير رقم ٣٦٩ ولم أجده في متن الكتاب!

وفي ذي الحجّة توفّي عبد القادر[1] بن محمّد بن عبد القادر بن محمّد بن يوسف أبو طالب، ومولده سنة ستّ وثلاثين وأربعمائة، وسمع البرمكيَّ، والجوهريَّ، والعشاريَّ، وكان ثقة، حافظاً للحديث.

(١) انظر عن (عبد القادر) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥١٦ هـ.) ص ٤٠١ رقم ١١٤، وفيه مصادر ترجمته.

٥١٧
ثم دخلت سنة سبع عشرة وخمسمائة

ذكر مسير المسترشد بالله لحرب دُبَيس

في هذه السنة كانت الحرب بين الخليفة المسترشد بالله، وبين دُبَيْس بن صدقة.

وكان سبب ذلك: أنّ دُبَيْساً أطلق عفيفاً خادم الخليفة، وكان مأسوراً عنده، وحمّله رسالة فيها تهديد للخليفة بإرسال البرسقيّ إلى قتاله، وتقويته بالمال، وأنّ السلطان كحل أخاه، وبالغ في الوعيد[1]، ولبس السواد، وجزّ شعره، وحلف لينهبنّ بغداذ، ويخرّبها، فاغتاظ الخليفة لهذه الرسالة، وغضب، وتقدّم إلى البرسقيّ بالتّبريز إلى حرب دُبَيْس، فبرز في رمضان سنة ستّ عشرة [وخمسمائة].

وتجهّز الخليفة، وبرز من بغداذ، واستدعى العساكر، فأتاه سليمان بن مُهارش، صاحب الحديثة، في عُقيل، وأتاه قرواش بن مسلّم، وغيرهما، وأرسل دُبَيْس إلى نهر ملك فنهب، وعمل أصحابه كلّ عظيم من الفساد، فوصل أهله إلى بغداذ، فأمر الخليفة فنودي ببغداذ لا يتخلّف من الأجناد أحد، ومَن أحبّ الجنديّة من العامّة فليحضر، فجاء خلق كثير، ففرّق فيهم الأموال والسلاح.

فلمّا علم دُبَيْس الحال كتب إلى الخليفة يستعطفه ويسأله الرضا عنه، فلم يُجب إلى ذلك، وأُخرجت خيام الخليفة في العشرين من ذي الحجّة من سنة ستّ عشرة [وخمسمائة]، فنادى أهل بغداذ: النفيرَ النفيرَ، الغزاةَ الغَزاةَ! وكثُر الضجيج من الناس، وخرج منهم عالم كثير لا يُحصَون كثرةً، وبرز الخليفة رابع عشر ذي الحجّة، وعبر دجلة وعليه قَباء أسود، وعمامة سوداء، وطرحة، وعلى كتفه البُردة، وفي يده القضيب، وفي وسطه مِنطقةُ حديد صينيّ، ونزل الخيام ومعه وزير نظام الدين أحمد بن نظام

(١) في الأوربية: «الوعد».

المُلك، ونقيب الطالبيّين، ونقيب النقباء عليُّ بن طِراد، وشيخ الشيوخ صدر الدين إسماعيل وغيرهم من الأعيان.

وكان البرسقيُّ قد نزل بقرية جِهار طاقَ، ومعه عسكره، فلمّا بلغهم خروج الخليفة عن بغداذ عادوا إلى خدمته، فلمّا رأوا الشمسة ترجّلوا بأجمعهم، وقبّلوا الأرض بالبعد منه.

ودخلت هذه السنة، فنزل الخليفة، مستهلّ المحرّم، بالحديثة، بنهر الملك، واستدعى البرسقيّ والأمراء، واستحلفهم على المناصحة في الحرب، ثم ساروا إلى النّيل، ونزلوا بالمباركة، وعبأ البرسقيُّ أصحابه، ووقف الخليفة من وراء الجميع في خاصّته، وجعل دُبَيْس أصحابه صفاً واحداً، ميمنة، وميسرة، وقلباً، وجعل الرجّالة بين يدي الخيّالة بالسلاح، وكان قد وعد أصحابَهُ بنهب بغداذ، وسبي النساء، فلمّا تراءت الفئتان بادر أصحاب دُبَيْس، وبين أيديهم الإماء يضربن بالدفوف، والمخانيث بالملاهي، ولم يُرَ في عسكر الخليفة غير قارىء، ومسبّح، وداعٍ، فقامت الحرب على ساق.

وكان مع أعلام الخليفة الأمير كرباوي بن خُراسان، وفي الساقة سليمان بن مُهارش، وفي ميمنة عسكر البرسقيّ الأمير أبو بكر بن إلياس مع الأمراء البكجيّة، فحمل عنتر بن أبي العسكر في طائفة من عسكر دُبَيْس على ميمنة البرسقيّ، فتراجعت على أعقابها، وقُتل ابن أخ للأمير أبي بكر البكجيّ، وعاد عنتر وحمل حملة ثانية على هذه الميمنة، فكان حالها في الرجوع على أعقابها كحالها الأوّل، فلمّا رأى عسكر واسط ذلك، ومقدّمهم الشهيد عماد الدين زنكي بن آقسنقَر، حمل وهم معه على عنتر ومَن معه، وأتوهم من ظهورهم فبقي عنتر في الوسط، وعماد الدين وعسكر واسط من ورائه، والأمراء البكجيّة بين يديه، فأُسر عنتر، وأُسر معه بريك بن زائدة وجميع مَن معهما ولم يفلت أحد.

وكان البرسقيُّ واقفاً على نشزٍ من الأرض، وكان الأمير آق بوري في الكمين في خمسمائة فارس، فلمّا اختلط الناس خرج الكمين على عسكر دُبَيْس، فانهزموا جميعهم وألقَوا نفوسهم في الماء، فغرق كثير منهم، وقُتل كثير.

ولمّا رأى الخليفة اشتداد الحرب جرّد سيفه وكبّر وتقدّم إلى الحرب، فلمّا انهزم عسكر دُبَيْس وحُملت الأسرى إلى بين يدَيْه أمر الخليفة أن تُضرب أعناقهم صبراً.

وكان عسكر دُبَيْس عشرة آلاف فارس، واثني عشر ألف راجل، وعسكر البرسقيّ ثمانية آلاف فارس، وخمسة آلاف راجل، ولم يُقتل من أصحاب الخليفة غير عشرين

فارساً، وحصل نساء دُبَيْس وسراريّه تحت الأسر سوى بنت إيلغازي، وبنت عميد الدولة بن جُهير، فإنّه كان تركهما في المشهد.

وعاد الخليفة إلى بغداذ، فدخلها يوم عاشوراء من هذه السنة. ولمّا عاد الخليفة إلى بغداذ ثار العامّة بها، ونهبوا مشهد باب التبن، وقلعوا أبوابه، فأنكر الخليفة ذلك، وأمر نظر أمير الحاجّ بالركوب إلى المشهد، وتأديب من فعل ذلك، وأخْذ ما نُهب، ففعل وأعاد البعض وخفي الباقي عليه.

وأمّا دُبَيْس بن صدقة فإنّه لمّا انهزم نجا بفرسه وسلاحه، وأدركته الخيل، ففاتها وعبر الفرات، فرأته امرأة عجوز وقد عبر، فقالت له: دُبَيْر جئتَ؟ فقال: دُبَيْر من لم يجيء. واختفى خبره بعد ذلك، وأُرجف عليه بالقتل، ثم ظهر أمره أنّه قصد غُزَيّة من عرب نجد، فطلب منهم أن يحالفوه، فامتنعوا عليه وقالوا: إنّا نُسْخط الخليفة والسلطان؛ فرحل إلى المنتفق، واتّفق معهم على قصد البصرة وأخْذها، فساروا إليها ودخلوها، ونهبوا أهلها، وقُتل الأمير سَخْت كمان مقدّم عسكرها، وأُجلي أهلها.

فأرسل الخليفة إلى البرسقيّ يعاتبه على إهماله أمر دُبَيْس، حتّى تمّ له من أمر البصرة ما أخربها، فتجهّز البرسقيُّ للانحدار إليه، فسمع دُبَيْس ذلك، ففارق البصرة، وسار على البرّ إلى قلعة جَعْبر، والتحق بالفرنج، وحضر معهم حصار حلب، وأطمعهم في أخذها، فلم يظفروا بها، فعادوا عنها، ثم فارقهم والتحق بالملك طغرل ابن السلطان محمّد، فأقام معه، وحسّن له قصد العراق، وسنذكره سنة تسعٍ وعشرين [وخمسمائة]، إن شاء الله تعالى[1].

ذكر ملك الفرنج حصن الأثارب

في هذه السنة، في صفر، ملك الفرنج حصن الأثارب، من أعمال حلب.

وسبب ذلك: أنّهم كانوا قد أكثروا قصد حلب وأعمالها بالإغارة، والتخريب، والتحريق، وكان بحلب حينئذٍ بدر الدولة سليمان بن عبد الجبّار بن أُرتُق، وهو صاحبها، ولم يكن له بالفرنج قوّة، وخافهم، فهادنهم على أن يسلّم الأثارب ويكفّوا

(١) المنتظم ٩/٢٤٢، ٢٤٣ (١٧/٢١٦، ٢١٧)، تاريخ حلب للعظيمي (تحقيق زعرور) ٣٧٢ (تحقيق سويم) ٣٧، الإنباء في تاريخ الخلفاء ٢١٥ ـ ٢١٦، ذيل تاريخ دمشق ٢٠٨ ـ ٢٠٩، التاريخ الباهر ٢٥ ـ ٢٦، الروضتين ج ١ ق ١/٧٣، ٧٤، بغية الطلب (قسم تراجم السلاجقة) ٢٢٧ ـ ٢٢٨، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/١١٠، المختصر في أخبار البشر ٢/٢٣٦، دول الإسلام ٢/٤٢، العبر ٤/٣٩، تاريخ الإسلام ٢٩٧ ـ ٢٩٨، تاريخ ابن الوردي ٢/٣١، مرآة الجنان ٣/٢٢١، البداية والنهاية ١٢/١٩٠، ١٩١.

عن بلاده، فأجابوه إلى ذلك، وتسلّموا الحصن، وتمّت الهدنة بينهم، واستقام أمر الرعيّة بأعمال حلب، وجُلبت إليهم الأقوات وغيرها؛ ولم تزل الأثارب بأيدي الفرنج إلى أن ملكها أتابك زنكي بن آقسنقَر[1]، على ما نذكره إن شاء الله تعالىٰ.

ذكر ملك بَلك حرّان وحلب

في هذه السنة، في ربيع الأوّل، ملك بَلك بن بهرام مدينة حرَّان، وكان قد حصرها، فلمّا ملكها سار منها إلى مدينة حلب.

وسبب مسيره إليها: أنّه بلغه أن صاحبها بدر الدولة قد سلّم قلعة الأثارب إلى الفرنج، فعظُم ذلك عليه، وعلم عجزه عن حفظ بلاده، فقوي طمعه في ملكها، فسار إليها، ونازلها في ربيع الأوّل، وضايقها، ومنع الميرة عنها، وأحرق زروعها، فسلّم إليه ابن عمّه البلد والقلعة بالأمان، غرّة جمادى الأولى من السنة، وتزوّج ابنة الملك رضوان، وبقي مالكاً لها إلى أن قُتل على ما نذكره[2].

ذكر الحرب بين الفرنج والمسلمين بإفريقية

قد ذكرنا أنّ الأمير عليّ بن يحيى، صاحب إفريقية، لمّا استوحش من رُجّار صاحب صِقلّية، جدّد الأسطول الذي له، وكثّر عَدده وعُدده، وكاتب أميرَ المسلمين عليَّ بن يوسف بن تاشفين بمَرَّاكُش بالاجتماع معه على قصد جزيرة صقِلِيّة، فلمّا علم رجّار ذلك كفّ عن بعض ما كان يفعله.

فاتّفق أنّ علياً مات سنة خمس عشرة [وخمسمائة]، ووليَ ابنه الحسن، وقد ذكرناه. فلمّا دخلت سنة ستّ [عشرة وخمسمائة] سيّر أمير المسلمين أُسطولاً، ففتحوا نقوطرة[3] بساحل بلاد قِلَوْرِيَةَ، فلم يشكّ رُجّار أن علياً كان سبب ذلك، فجدّ في تعمير الشواني والمراكب، وحشد فأكثر، ومنع من السفر إلى إفريقية وغيرها من بلاد الغرب، فاجتمع له من ذلك ما لم يُعْهَدْ مثله، قيل: كان ثلاثمائة قطعة، فلمّا انقطعت الطريقُ عن إفريقية توقّع الأمير الحسن بن عليّ خروج العدوّ إلى المَهديّة، فأمر باتّخاذ العُدد، وتجديد الأسوار، وجمع المقاتلة، فأتاه من أهل البلاد ومن العرب جمع كثير.

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ٢٠٩.

(٢) تاريخ حلب (زعرور) ٣٧٢ ـ ٣٧٣، (سويم) ٣٨ ـ ٣٩، زبدة الحلب ٢/ ٢١١ ـ ٢١٢، الأعلاق الخطيرة ج ٣ ق ١/ ٥٤، المختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٣٧، تاريخ الإسلام (حوادث ٥١٧ هـ) ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٣١.

(٣) في الأصل: «بقوطره».

فلمّا كان في جمادى الآخرة سنة سبع عشرة [وخمسمائة] سار الأسطول الفرنجيُ في ثلاثمائة قطعة، فيها ألف فرس وفرس واحد، إلاّ أنّهم لمّا ساروا من مَرسَى عليّ فرّقتهم الريح، وغرق منهم مراكب كثيرة، ونازل من سلم منهم جزيرة قَوْصَرَةَ ففتحوها، وقتلوا من بها، وسبوا وغنموا، (وساروا عنها)[1]، فوصلوا إلى إفريقية، ونازلوا الحصن المعروف بالدّيماس أواخر جمادى الأولى، فقاتلهم طائفة من العرب كانوا هناك، والدّيماس حصنٌ منيعٌ، في وسطه حصن آخر، وهو مشرف على البحر.

وسيّر الحسن مَن عنده من الجموع إلى الفرنج، وأقام هو بالمهديّة في جمع آخر يحفظها، وأخذ الفرنج حصن الدّيماس، وجنود المسلمين محيطة بهم، فلمّا كانَ بعد ليالٍ اشتدّ القتال على الحصن الداخل، فلمّا كان الليل صاح المسلمون صيحة عظيمةً ارتّجت لها الأرض، وكبّروا، فوقع الرعب في قلوب الفرنج، فلم يشكّوا أنّ المسلمين يهجمون عليهم، فبادروا إلى شوانيهم، وقتلوا بأيديهم كثيراً من خيولهم، وغنم المسلمون منها أربعمائة فرس، ولم يسلم معهم غير فرس واحد، وغنم المسلمون جميع ما تخلّف عن الفرنج، وقتلوا كلّ من عجز عن الطلوع إلى المراكب.

فلمّا صعد الفرنج إلى مراكبهم أقاموا بها ثمانية أيّام لا يقدرون على النزول إلى الأرض، فلمّا أيسوا من خلاص أصحابهم الذين في الديماس ساروا والمسلمون يكبّرون عليهم ويصيحون بهم، وأقامت عسكر المسلمين على حصن الديماس في أمم لا يُحصَون كثرةً، فحصروه، فلم يمكنهم فتحه لحصانته وقوّته، فلمّا عُدِم الماء على من به من الفرنج، وضجروا من مواصلة القتال ليلاً ونهاراً، فتحوا باب الحصن وخرجوا، فقُتلوا عن آخرهم، وذلك يوم الأربعاء منتصف جمادى الآخرة من السنة، وكانت مدّة إقامتهم في الحصن ستّة عشر يوماً.

ولمّا رجع الفرنج مقهورين أرسل الأمير الحسن البُشرى إلى سائر البلاد، وقال الشعراء في هذه الحادثة فأكثروا، تركنا ذلك خوفَ التطويل.

ذكر استيلاء الفرنج على خَرْتَبِرْت وأخذها منهم

في هذه السنة، في ربيع الأول، استولى الفرنج على خَرْتَبِرْت من بلاد ديار بكر.

وسبب ذلك: أنّ بَلك بن بَهرام بن أُرتُق كان صاحب خَرْتَبِرْتَ، فحصر قلعة كَركر، وهي تقارب خَرْتَبِرْتَ، فسمع الفرنج بالشام الخبر، فسار بغدوين ملك الفرنج في

(١) زيادة من المكتبة الصقلّية لأماري، ص ٢٨٣.

جموعه إليه ليرحله عنها، خوفاً أن يقوى بملكها، فلمّا سمع بَلك بقربه منه رحل إليه، والتقيا في صفر، واقتتلا، فانهزم الفرنج، وأُسر ملكهم ومعه جماعة من أعيان فرسانهم، وسجنهم بقلعة خَرْتَبِرْتَ، وكان بالقلعة أيضاً جوسلين، صاحب الرُّها، وغيره من مقدّمي الفرنج كان قد أسرهم سنة خمس عشرة [وخمسمائة]، وسار بَلك عن خَرْتَبِرْتَ إلى حرّان في ربيع الأوّل فملكها، فأعمل الفرنج الحيلة باستمالة بعض الجُند، فظهروا وملكوا القلعة.

فأمّا الملك بغدوين فإنّه اتّخذ الليل جملاً ومضى[1] إلى بلاده، واتّصل الخبر ببَلك صاحبها، فعاد في عساكره إليها وحصرها، وضيّق على من بالقلعة، واستعادها من الفرنج، وجعل فيها من الجُند من يحفظها، وعاد عنها[2].

ذكر قتل وزير السلطان وعَوْد ابن صدقة إلى وزارة الخليفة

في هذه السنة قبض السلطان محمود على وزيره شمس المُلك عثمان بن نظام المُلك وقتله.

وسبب ذلك: أنّه لمّا أشار على السلطان بالعود عن حرب الكُرْج، وخالفه، وكانت الخيرة في مخالفته، تغيّر عليه، وذكره أعداؤه بالسوء[3]، ونبّهوا على تهوّره، وقلّة تحصيله ومعرفته بمصالح الدولة، ففسد رأي السلطان فيه.

ثم إنّ الشهاب أبا المحاسن، وزير السلطان سنجَر، كان قد توفّي وهو ابن أخي نظام المُلك، ووَزَرَ بعده أبو طاهر القُمّيُّ، وهو عدوّ للبيت النظاميّ، فسعى مع السلطان سنجَر، حتّى أرسل إلى السلطان محمود يأمره بالقبض على وزيره شمس المُلك، فصادف وصول الرسول وهو متغيّر عليه، فقبض عليه وسلّمه إلى طغايرك، فبعثه إلى بلده خَلْخَال، فحبسه فيها.

ثم إنّ أبا نصر المستوفي، الملقّب بالعزيز، قال للسلطان محمود: لا نأمن أن يرسل السلطان سنجَر يطلب الوزير، ومتى اتّصل به لا نأمن شرّاً يحدث منه. وكان بينهما عداوة، فأمر السلطان بقتله، فلمّا دخل عليه السيّاف ليقتله، قال: أمهلني حتّى

---

(١) في الأوربية: «ومضا».

(٢) ذيل تاريخ دمشق ٢٠٩.

(٣) في الأوربية: «أسوء».

أصلّي ركعتَيْن؛ ففعل، فلمّا صلّى جعل يرتعد، وقال للسيّاف: سيفي أجْود من سيفك، فاقتلني به ولا تعذّبني؛ فقُتل ثاني جمادى الآخرة. فلمّا سمع الخليفة المسترشد بالله ذلك عزل أخاه نظام الدين أحمد من وزارته، وأعاد جلال الدين أبا عليّ بن صدقة إلى الوزارة، وأقام نظام الدين بالمثَمّنة التي في المدرسة النظاميّة ببغداذ.

وأمّا العزيز المستوفي فإنه لم تطُلْ أيّامه حتّى قُتل، على ما نذكره، جزاء لسَعْيه في قتل الوزير[١].

ذكر ظفر السلطان محمود بالكُرْج

في هذه السنة اشتدّت نكاية الكُرْج في بلد الإسلام، وعظُم الأمر على الناس، لا سيّما أهل دَرْبَنْد شِروانَ، فسار منهم جماعة كثيرة من أعيانهم إلى السلطان، وشكوا إليه ما يلقون منهم، وأعلموه بما هم عليه من الضعف والعجز عن حفظ بلادهم، فسار إليهم والكُرْج قد وصلوا إلى شَمَاخِي، فنزل السلطان في بستان هناك، وتقدّم الكُرْج إليه، فخافهم العسكر خوفاً شديداً.

وأشار الوزير شمس المُلك عثمان بن نظام المُلك على السلطان بالعَود [من] هناك، فلمّا سمع أهل شِروان بذلك قصدوا السلطان، وقالوا له: نحن نقاتل ما دمت[٢] عندنا، وإن تأخّرتَ عنّا ضعُفت نفوس المسلمين وهلكوا؛ فقبل قولهم، وأقام بمكانه.

وبات العسكر على وجلٍ عظيم، وهم بنيّة المصافّ، فأتاهم الله بفرج من عنده، وألقى بين الكُرْج وقفجاق اختلافاً وعداوة، فاقتتلوا تلك اللّيلة، ورحلوا شبه المنهزمين، وكفى الله المؤمنين القتال، وأقام السلطان بشِروان مدّةً، ثم عاد إلى همَذان فوصلها في جمادى الآخرة.

ذكر الحرب بين المغاربة وعسكر مصر

في هذه السنة وصل جمْعٌ كثير من لَوَاتَةَ من الغرب إلى ديار مصر، فأفسدوا[٣] فيها ونهبوها، وعملوا أعمالاً شنيعة، فجمع المأمون بن البطائحيّ، الذي وَزَرَ بمصر بعد الأفضل، عسكر مصر، وسار إليهم فقاتلهم فهزمهم، وأسر منهم وقتل خلقاً كثيراً، وقرّر

---

(١) المنتظم ٩/٢٤٥، ٢٤٦ (١٧/٢٢٠)، تاريخ دولة آل سلجوق ١٠٨ و ١٣٢، تاريخ الإسلام ٢٩٩، النجوم الزاهرة ٥/٢٢٦.

(٢) في الأوربية: «مهما أنت».

(٣) في الأوربية: «فاسدوا».

عليهم خرجاً معلوماً كلّ سنة يقومون به، وعادوا إلى بلادهم، وعاد المأمون إلى مِصر مظفّراً منصوراً.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في صفر، أمر المسترشد بالله ببناء سور بغداذ، وأن يجبى ما يخرج عليه من البلد، فشقّ ذلك على الناس، وجُمع من ذلك مال كثير، فلمّا علم الخليفة كراهة الناس لذلك أمر بإعادة ما أُخذ منهم، فسُرّوا بذلك، وكثُر الدعاء له.

وقيل: إنّ الوزير أحمد بن نظام المُلك بذل من ماله خمسة عشر ألف دينار، وقال: نقسّط الباقي على أرباب الدولة.

وكان أهل بغداذ يعملون بأنفسهم فيه، وكانوا يتناوبون العمل: يعمل أهل كلّ محلّة منفردين بالطبول والزُّمُور، وزيّنوا البلد، وعملوا فيه القباب[1].

وفيها عُزل نقيب العلويّين، وهُدمت دار عليّ بن أفلح، وكان الخليفة يكرمه، فظهر أنّهما عين لدُبَيْس يطالعانه بالأخبار، وجعل الخليفة نقابة العلويّين إلى عليّ بن طِراد، نقيب العبّاسيّين[2].

وفيها جمع الأمير بَلك عساكره وسار إلى غزاة بالشام، فلقيه الفرنج، فاقتتلوا، فانهزم الفرنج وقُتل منهم وأُسر بشر كثير من مقدّميهم ورجّالتهم[3].

وفيها كان في أكثر البلاد غلاء شديد، وكان أكثره بالعراق، فبلغ ثمن كارة الدقيق الخشكار ستّة دنانير وعشرة قراريط، وتبع ذلك موت كثير، وأمراض زائدة هلك فيها كثير من الناس[4].

[الوفيات]

وفيها، في صفر، توفّي قاسم بن أبي هاشم العلويُّ الحسنيُّ أمير مكّة، ووليَ بعده ابنه أبو فُلَيْتة، وكان أعدل منه، وأحسن السيرة، فأسقط المكوس، وأحسن إلى الناس[5].

---

(١) المنتظم ٩/ ٢٤٥ (١٧/ ٢١٩)، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١١٠، تاريخ الإسلام ٢٩٨.
(٢) المنتظم ٩/ ٢٤٤ (١٧/ ٢١٧).
(٣) تاريخ حلب ٣٧٤ (٣٩)، تاريخ الزمان ١٣٩، تاريخ مختصر الدول ٢٠٢، زبدة الحلب ٢/ ٢١٩، الأعلاق الخطيرة ج ٣ ق ١/ ٥٤، تاريخ الإسلام ٣٠٠، النجوم الزاهرة ٥/ ٢٢٨.
(٤) المنتظم ٩/ ٢٤٧ (١٧/ ٢٢١).
(٥) المنتظم ١٧/ ٢٢٦، رقم ٣٩٣٢.

وفيها توفّي عبد الله[1] بن الحسن بن أحمد بن الحسن أبو نَعيم بن أبي عليّ الحدّاد الأصبهانيُّ، ومولده سنة ثلاثٍ وستّين وأربعمائة، وهو من أعيان المحدّثين، سافر الكثير في طلب الحديث.

[ذكر عدّة حوادث]

وفيها سار طُغتِكين، صاحب دمشق، إلى حمص، فهجم [على] المدينة ونهبها وأحرق كثيراً منها وحصرها، وصاحبها قرجان[2] بالقلعة، فاستمدّ صاحبها طُغانَ أرسلان، فسار إليه في جَمْعٍ كثير، فعاد طُغتِكين إلى دمشق[3].

وفيها لقي أسطول مصر أسطول البنادقة من الفرنج، فاقتتلوا، وكان الظفر للبنادقة، وأُخذ من أُسطول مصر عدّة قطع، وعاد الباقي سالماً[4].

وفيها سار الأمير محمود بن قراجة، صاحب حماة، إلى حصن أفَامِيَةَ، فهجم على الربَض بغتةً، فأصابه سهم من القلعة في يده، فاشتدّ ألمُهُ، فعاد إلى حمَاة، وقلع الزُّجّ من يده، ثم عملتْ عليه، فمات منه، واستراح أهل عمله من ظُلمه وجوره؛ فلمّا سمع طُغتِكين، صاحب دمشق، الخبر سيّر إلى حمَاة عسكراً، فملكها وصارت في جملة بلاده، ورتّب فيها والياً وعسكراً لحمايتها[5].

---

(١) يقال له «عبد الله» و «عبيد الله». انظر عنه في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥١٧ هـ.) ص ٤١٤ ـ ٤١٥ رقم ١٣٤.

(٢) في الأصل: «حيرخان».

(٣) ذيل تاريخ دمشق ٢١٠.

(٤) ذيل تاريخ دمشق ٢٠٩.

(٥) تاريخ حلب للعظيمي (بتحقيق زعرور) ٣٧٣ (وتحقيق سويم) ٣٥، المختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٣٧، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٢٧ هـ.) ص ٣٠٠، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٣١.

٥١٨
ثم دخلت سنة ثماني عشرة وخمسمائة

ذكر قتل بَلك بن بهرام بن أُرتق وملك تمرتاش[١] حلب

في هذه السنة، في صفر، قبض بَلك بن بهرام بن أُرتُق، صاحب حلب، على الأمير حسّان البعلبكّيّ، صاحب مَنبج، وسار إليها فحصرها، فملك المدينة، وحصر القلعة، فامتنعت عليه، فسار الفرنج إليه ليرحّلوه عنها لئلاّ يقوى بأخذها، فلمّا قاربوه ترك على القلعة من يحصرها، وسار في باقي عسكره إلى الفرنج، فلقيهم وقاتلهم، فكسرهم وقتل منهم خلقاً كثيراً، وعاد إلى مَنبج فحصرها، فبينما هو يقاتل من بها أتاه سهم فقتله، لا يُدْرَى من رماه، واضطّرب عسكره، وتفرّقوا، وخلص حسّان من الحبس، فكان حُسام الدين تمرتاش[١] بن إيلغازي بن أُرتُق مع ابن عمّه بَلك، فحمله مقتولاً إلى ظاهر حلب، وتسلّمها في العشرين من ربيع الأوّل من هذه السنة، وزال الحصار عن قلعة مَنبج، وعاد إليها صاحبها حسّان، واستقرّ تمرتاش بحلب واستولى عليها.

ثم إنّه جعل فيها نائباً له يثق به[٢]، ورتّب عنده ما يحتاج إليه من جُندٍ وغيرهم وعاد إلى ماردين، لأنّه رأى الشام كثيرة الحرب مع الفرنج، وكان رجلاً يحبّ الدَّعَةَ والرَّفاهة، فلمّا عاد إلى ماردين أُخذت حلب منه، على ما نذكره إن شاء الله تعالى[٣].

---

(١) في الأوربية: «تمرتاس».

(٢) في الأوربية: «إليه».

(٣) تاريخ حلب ٣٧٤ (٣٩)، تاريخ الزمان ١٣٩، تاريخ مختصر الدول ٢٠٢، زبدة الحلب ٢/٢١٩، الأعلاق الخطيرة ج ٣ ق ١/ ٥٤، تاريخ الإسلام ٣٠٠، النجوم الزاهرة ٥/ ٢٢٨.

ذكر ملك الفرنج مدينة صور بالشام

كانت مدينة صور للخلفاء العلويّين بمصر، ولم تزل كذلك إلى سنة ستّ وخمسمائة، فكان بها والٍ من جهة الأفضل أمير الجيوش، وزير الآمر بأحكام الله العلويّ، يلقّب عزّ الملك، وكان الفرنج قد حصروها، وضيّقوا عليها، ونهبوا بلدها غير مرّةٍ، فلمّا كانت سنة ستّ تجهّز ملك الفرنج، وجمع عساكره ليسير إلى صور، فخافهم أهل صور، فأرسلوا إلى أتابك طُغتِكين، صاحب دمشق، يطلبون منه أن يرسل إليهم أميراً من عنده يتولّاهم ويحميهم، ويكون البلد له، وقالوا له: إن أرسلتَ إلينا والياً، وعسكراً، وإلاّ سلّمنا البلد إلى الفرنج؛ فسيّر إليهم عسكراً، وجعل عندهم والياً اسمه مسعود، وكان شهماً، شجاعاً، عارفاً بالحرب ومكايدها، وأمدّه بعسكر، وسيّر إليهم ميرة ومالاً[1] فرّقه فيهم.

وطابت نفوس أهل البلد، ولم تُغيّر الخطبة للآمر، صاحب مصر، ولا السكّة، وكتب إلى الأفضل بمصر يعرّفه صورة الحال، ويقول: متى وصل إليها من مصر من يتولّاها، ويذبّ عنها، سلّمتُها إليه؛ ويطلب أنّ الأسطول لا ينقطع عنها بالرجال والقوّة. فشكره الأفضل على ذلك، وأثنى عليه، وصوّب رأيه فيما فعله، وجهّز أسطولاً، وسيّره إلى صور، فاستقامت أحوال أهلها. ولم يزل كذلك إلى سنة ستّ عشرة، بعد قَتْل الأفضل، فسُيّر إليها أسطول، على جاري العادة، وأمروا المقدّم على الأسطول أن يعمل الحيلة على الأمير مسعود الوالي بصور من قِبل طُغتِكين، ويقبض عليه، ويتسلّم البلد منه.

وكان السبب في ذلك: أنّ أهل صور أكثروا الشكوى منه إلى الآمر بأحكام الله، صاحب مصر، بما يعتمده من مخالفتهم، والإضرار بهم، ففعلوا ذلك، وسار الأسطول فأرسى[2] عند صور، فخرج مسعود إليه للسلام على المقدّم عليه، فلمّا صعِد إلى المركب الذي فيه المقدّم اعتقله، ونزل البلد، واستولى عليه، وعاد الأسطول إلى مصر، وفيه الأمير مسعود، فأُكرم وأُحسن إليه، وأُعيد إلى دمشق.

وأمّا الوالي من قِبَل المصريّين فإنّه طيّب قلوب الناس، وراسل طُغتِكين يخدمه بالدعاء والاعتضاد، وأنّ سبب ما فعل هو شكوى أهل صور من مسعود، فأحسن طُغتِكين الجواب، وبذل من نفسه المساعدة.

---

(١) في الأوربية: «وملاً».

(٢) في الأوربية: «فأرسا».

ولمّا سمع الفرنج بانصراف مسعود عن صور قوي طمعهم فيها، وحدّثوا نفوسهم بملْكها، وشرعوا في الجمع والتأهّب للنزول عليها وحَصْرها، فسمع الوالي بها للمصريّين الخبر، فعلم أنّه لا قوّة له، ولا طاقة على دفع الفرنج عنها، لقلّة من بها من الجُند والمِيرة، فأرسل إلى الآمر بذلك، فرأى أن يردّ ولاية صور إلى طُغتِكين، صاحب دمشق، فأرسل إليه بذلك، فملك صور، ورتّب بها من الجُند وغيرهم ما ظنّ فيه كفاية.

وسار الفرنج إليهم ونازلوهم في ربيع الأوّل من هذه السنة، وضيّقوا عليهم، ولازموا القتال، فقلّت الأقوات، وسئم من بها القتال، وضعُفت نفوسهم، وسار طُغتكين إلى بانياس ليقرب منهم، ويذبّ عن البلد، ولعلّ الفرنج إذا رأوا قربه منهم رحلوا، فلم يتحرّكوا، ولزِموا الحصار، فأرسل طُغتِكين إلى مصر يستنجدهم، فلم يُنجدوه، وتمادت الأيَّام، وأشرف أهلها على الهلاك، فراسل حينئذٍ طُغتِكين، صاحب دمشق، وقرّر الأمر على أن يسلّم المدينة إليهم، ويمكّنوا من بها من الجُند والرعيّة من الخروج منها بما يقدرون عليه من أموالهم ورحالهم وغيرها، فاستقرّت القاعدة على ذلك، وفُتحت أبواب البلد، وملكه الفرنج، وفارقه أهلُه، وتفرّقوا في البلاد، وحملوا ما أطاقوا، وتركوا ما عجزوا عنه، ولم يعرض الفرنج لأحد منهم، ولم يبق إلاّ الضعيف عجز عن الحركة.

وملك الفرنج البلد في الثالث والعشرين من جُمادى الأولى من السنة، وكان فتحه وهناً عظيماً على المسلمين، فإنّه من أحصن البلاد وأمنعها، فالله يعيده إلى الإسلام، ويقرّ أعين المسلمين بفتحه، بمحمّد وآله[1].

ذكر عزل البُرسقيّ عن شِحنكيّة العراق ووولاية يرنقش الزكويّ

في هذه السنة عُزل البرسقيُّ عن شِحنكيّة العراق، ووليها سعد الدولة يرنقش الزكويّ.

---

(١) انظر عن سقوط صور في: تاريخ حلب ٣٧٤ (٣٩)، وذيل تاريخ دمشق ٢١١، وتاريخ الزمان ١٤٠، وتاريخ مختصر الدول ٢٠٢، ومرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١١٣، وأخبار مصر لابن ميسّر ٢/ ٦٤، ونهاية الأرب ٢٨/ ٢٧٠ ـ ٢٧٢، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٣٧، والأعلاق الخطيرة ٢/ ١٦٩ ـ ١٧١، والمغرب ٨٤، والدرّة المضيّة ٤٩٥، ودول الإسلام ٢/ ٤٤، والعبر ٤/ ٤٢، وتاريخ الإسلام ٣٠٣، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٣٢، والإعلام والتبيين ٢٤، وتاريخ سلاطين المماليك ٣ (ضمن أخبار فتح عكا)، ومرآة الجنان ٣/ ٢٢٢، واتعاظ الحنفا ٣/ ١٠٧، والنجوم الزاهرة ٥/ ١٨٢ ـ ١٨٣، وشذرات الذهب ٤/ ٥٧، وانظر كتابنا: لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين ٣٠٤ ـ ٣٠٩، وفيه مصادر أجنبية أخرى.

وسبب ذلك: أنّ البرسقيَّ نفر عنه المسترشد بالله، فأرسل إلى السلطان محمود يلتمس منه أن يعزل البرسقيَّ عن العراق ويعيده إلى الموصل، فأجابه السلطان إلى ذلك، وأرسل إلى البرسقيّ يأمره بالعود إلى الموصِل، والاشتغال بجهاد الفرنج، فلمّا علم البرسقيّ الخبر شرع في جباية الأموال، ووصل نائب يرنقش، فسلّم إليه البرسقيُّ الأمر، وأرسل السلطان ولداً له صغيراً مع أمّه إلى البرسقيّ ليكون عنده، فلمّا وصل الصغير إلى العراق خرجت العساكر والمواكب إلى لقائه، وحُملت له الإقامات، وكان يوم دخوله يوماً مشهوداً، وتسلّمه البرسقيُّ، وسار إلى الموصل، وهو ووالدته معه.

ولمّا سار البرسقيُّ إلى الموصل كان عماد الدين زنكي بن آقسنقَر بالبصرة قد سيّره البرسقيُّ إليها ليحميها، فظهر من حمايته لها ما عجب منه الناس، ولم يزل يقصد العرب ويقاتلهم في حِللهم، حتّى أبعدوا إلى البرّ، فأرسل إليه البرسقيُّ يأمره باللحاق به، فقال لأصحابه: قد ضجرنا ممّا نحن فيه: كلّ يوم للموصل أمير جديد، ونريد نخدمه، وقد رأيتُ أن أسير إلى السلطان فأكون معه؛ فأشاروا عليه بذلك، فسار إليه، فقدِم عليه بأصبهان فأكرمه، وأقطعه البصرة وأعاده إليها[1].

ذكر ملك البُرسقيّ مدينة حلب

في هذه السنة، في ذي الحجّة، ملك آقسنقَر البرسقيُّ مدينة حلب وقلعتها.

وسبب ذلك: أنّ الفرنج لمّا ملكوا مدينة صور، على ما ذكرناه، طمعوا، وقويت نفوسهم، وتيقّنوا الاستيلاء على بلاد الشام، واستكثروا من الجموع، ثم وصل إليهم دُبَيْس بن صدقة، صاحب الحِلّة، فأطمعهم طمعاً ثانياً، لا سيّما في حلب، وقال لهم: إنّ أهلها شيعة، وهم يميلون إليّ لأجل المذهب، فمتى رأوني سلّموا البلد إليّ. وبذل لهم على مساعدته بذولاً كثيرة، وقال: إنّني أكون ها هنا نائباً عنكم ومطيعاً لكم. فساروا معه إليها وحصروها، وقاتلوا قتالاً شديداً، ووطّنوا نفوسهم على المقام الطويل، وأنّهم لا يفارقونها حتى يملكوها، وبنوا البيوت لأجل البرد والحرّ.

فلمّا رأى أهلها ذلك ضعفت نفوسهم، وخافوا الهلاك، وظهر لهم من صاحبهم تمرتاش الوهن والعجز، وقلّت الأقوات عندهم، فلمّا رأوا ما دُفِعوا إليه من هذه الأسباب، أعملوا الرأي في طريق يتخصلّون به، فرأوا أنّه ليس لهم غير البرسقيّ،

---

(١) المنتظم ٩/٢٤٩ (١٧/ ٢٢٤)، بغية الطلب (قسم السلاجقة) ٢٠٤، تاريخ الإسلام ٣٠١، البداية والنهاية ١٢/ ١٩٤، عيون التواريخ ١٢/ ١٥٥، ويرد: «يرتقش» و «برنقش».

صاحب الموصل، فأرسلوا[1] إليه يستنجدونه ويسألونه المجيء إليهم ليسلّموا البلد إليه. فجمع عساكره وقصدهم، وأرسل إلى من بالبلد، وهو في الطريق؛ يقول: إنّني لا أقدر على الوصول إليكم، والفرنج يقاتلونكم، إلاّ إذا سلّمتم القلعة إلى نوّابي، وصار أصحابي فيها، فإنّني لا أدري ما يقدّره الله تعالىٰ إذا أنا لقيتُ الفرنج، فإن انهزمنا منهم وليست حلب بيد أصحابي حتّى أحتمي أنا وعسكري بها، لم يبق منّا أحد، وحينئذٍ تؤخذ حلب وغيرها.

فأجابوه إلى ذلك، وسلّموا القلعة إلى نوّابه، فلمّا استقرّوا فيها، واستولوا عليها، سار في العساكر التي معه، فلمّا أشرف عليها رحل الفرنج عنها، وهو يراهم، فأراد من في مقدّمة عسكره أن يحمل عليهم، فمنعهم هو بنفسه، وقال: قد كُفينا شرّهم، وحفظنا بلدنا منهم، والمصلحة تَرْكُهُم حتّى يتقرّر أمر حلب ونُصلح حالها ونُكثر ذخائرها، ثم حينئذٍ نقصدهم ونقاتلهم. فلمّا رحل الفرنج خرج أهل حلب ولقوه، وفرحوا به، وأقام عندهم حتّى أصلح الأمور وقرّرها[2].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة انقطعت الأمطار في العراق، والموصِل، وديار الجزيرة، والشام، وديار بكر، وكثير من البلاد، فقلّت الأقوات، وغلت الأسعار في جميع البلاد، ودام إلى سنة تسع عشرة [وخمسمائة][3].

وفيها وصل منصور بن صدقة أخو دُبَيْس إلى بغداذ تحت الاستظهار فمرض بها، فأحضر الخليفة الأطبّاء وأمرهم بمعالجته، وأحضره عنده، وجُعل في حجرة، وأدخل أصحابه إليه.

وفيها سار دُبَيْس من الشام، بعد رحيله عن حلب، وقصد الملك طُغرل، فأغراه بالخليفة، وأطمعه في العراق، وكان ما نذكره سنة تسع عشرة إن شاء الله تعالىٰ.

وفيها مات الحسن بن الصبّاح، مقدّم الإسماعيليّة، صاحب أَلَمُوتَ، وقد تقدّم من أخباره ما يُعلم به محلّه من الشجاعة والرأي والتجربة.

---

(١) في الأوربية: «فأرسل».

(٢) تاريخ حلب ٣٧٥ (٤٠)، زبدة الحلب ٢/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣ و ٢٢٧ ـ ٢٣٠، بغية الطلب (قسم السلاجقة) ٢٠٥ ـ ٢٠٦ و ٢٢٨ ، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١١٤، المختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٣٥، تاريخ الإسلام ٣٠٤، الدرّة المضية ٤٩٤، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٣٢.

(٣) انظر: المنتظم ٩/ ٢٤٩ (١٧/ ٢٢٤)، وتاريخ الإسلام ٣٠٢.

وفيها أيضاً توفّي داود ملك الأَبخَازِ[1].

وشمس الدولة بن نجم الدين إيلغازي.

وفيها ثار أهل آمِد بمَن فيها من الإسماعيليّة، وكانوا قد كثُروا، فقتلوا منهم نحو سبعمائة رجل، فضعُف أمرهم بها بعد هذه الوقعة.

[الوفيات]

وفيها، في صفر، توفّي محمّد بن مرزوق بن عبد الرزّاق الزعفرانيُّ، وهو من أصحاب الخطيب البغداذيّ.

وفيها توفّي أحمد بن عليّ بن برهان[2] أبو الفتح، الفقيه المعروف بابن الحمّاميّ لأنّ أباه كان حمّاميّاً، وكان حنبليّاً، تفقّه على ابن عُقيل، ثم صار شافعيّاً، وتفقّه على الغزاليّ، والشاشيّ.

---

(١) انظر عن (الملك داود) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥١٨ هـ.) ٤٢٤ رقم ١٥١، وتاريخ حلب للعظيمي (٣٧٣) (٣٩).

(٢) هكذا هنا والبداية والنهاية ١٢/ ١٩٤، وفي المنتظم ١٧/ ٢٢٥ رقم ٣٩٢٨ «تركان».

٥١٩
ثم دخلت سنة تسع عشرة وخمسمائة

ذكر وصول الملك طغرل ودُبَيْس
ابن صدقة إلى العراق وعودهما عنه

قد ذكرنا مسير دُبَيْس بن صدقة إلى الملك طُغرل من الشام، فلمّا وصل إليه لقيه، وأكرمه، وأحسن إليه، وجعله من أعيان خواصّه وأمرائه، فحسّن له دُبَيْس قَصْد العراق، وهوّن أمره عليه، وضمن له أنّه يملكه، فسار معه إلى العراق، فوصلوا دَقُوقًا في عساكر كثيرة. فكتب مجاهد الدين بهروز من تَكريت يخبر الخليفة خبرهما، فتجهّز للمسير ومَنْعهما، وأمر يرنقشَ الزكويّ، شِحنة العراق، أن يكون مستعدّاً للحرب، وجمع العساكر، والأمراء البكجيّة، وغيرهم، فبلغت عدّة العساكر اثني عشر ألفاً سوى الرجّالة، وأهل بغداذ، وفرّق السلاح.

وبرز خامس صفر وبين يدَيْه أرباب الدولة رجّالة، وخرج من باب النصر، وكان قد أمر بفتحه تلك الأيّام، وسمّاه باب النصر، ونزل صحراء الشمّاسيّة، ونزل يرنقش عند السّبْي، ثم سار فنزل الخالصَ تاسع صفر.

فلمّا سمع طُغرل بخروج الخليفة عدل إلى طريق خُراسان، وتفرّق أصحابه في النهب والفساد، ونزل هُوَ رباط جَلولاء، فسار إليه الوزير جلال الدين بن صدقة في عسكر كثير، فنزل الدَّسكرة، وتوجّه طُغرل ودُبَيْس إلى الهارونيّة، وسار الخليفة فنزل بالدَّسكرة هو والوزير، واستقرّ الأمر بين دُبَيْس وطُغرل أن يسيرا حتّى يعبرا دِيَالَى وتامَرّا، ويقطعا جسر النَّهروان. ويقيم دُبَيْس ليحفظ المعابر، ويتقدّم طُغرل إلى بغداذ فيملكها وينهبها، فسارا على هذه القاعدة، فعبرا تامرّا، ونزل طُغرل بينه وبين دَيَالى.

وسار دُبَيْس على أن يلحقه طُغرل، فقدّر الله تعالىٰ أنّ الملك طُغرل لحِقه حُمّى شديدة، ونزل عليهم من المطر ما لم يشاهدوا مثله، وزادت المياه وجاءت السيول

والخليفة بالدَّسكرة، وسار دُبَيْس في مائتَيْ فارس، وقصد مَعَرّة النَّهروان وهو تَعبان سهران، وقد لقي هو وأصحابه من المطر والبلل ما آذاهم، وليس معهم ما يأكلون، ظنّاً منهم أن طغرل وأصحابه يلحقونهم، فتأخّروا لما ذكرناه، فنزلوا جياعاً قد نالهم البرد، وإذا قد طلع عليهم ثلاثون جملاً تحمل الثياب المخيطة، والعمائم، والأقبية، والقلانس، وغيرها من الملبوس، وتحمل أيضاً أنواع الأطعمة المصنوعة، قد حُملت من بغداذ إلى الخليفة، فأخذ دُبَيْس الجميع، فلبسوا الثياب الجُدد، ونزعوا الثياب النديّة، وأكلوا الطعام، وناموا في الشمس ممّا نالهم تلك الليلة.

وبلغ الخبر أهل بغداذ، فلبسوا السلاح، وبقوا يحرسون اللّيل والنهار[1]، ووصل الخبر إلى الخليفة والعسكر الذين معه أنّ دُبَيْساً قد ملك بغداذ، فرحل من الدَّسكرة، ووقعت الهزيمة على العسكر إلى النَّهروان، وتركوا أثقالهم ملقاة بالطريق لا يلتفت إليها أحد، ولولا أنّ الله تعالىٰ لطف بهم بحمّى الملك طُغرل وتأخّره لكان قد هلك العسكر، والخليفة أيضاً، وأُخذوا، وكانت السواقي مملوءةً بالوحل والماء من السيل، فتمزّقوا، ولو لحقهم مائة فارس لهلكوا.

ووصلت رايات الخليفة، ودُبَيْس وأصحابه نيام، وتقدّم الخليفة، وأشرف على دَيالَى، ودُبَيْس نازل غرب النَّهروان، والجسر ممدود شرق النهروان، فلمّا أبصر دُبَيْس شمسة الخليفة قبّل الأرض بين يدَي الخليفة وقال: أنا العبد المطرود، فيلعفُ أمير المؤمنين عن عبده. فرقّ الخليفة له، وهمّ بصلحه، حتّى وصل الوزير ابن صدقة فثناه عن رأيه، وركب دُبَيْس، ووقف بإزاء عسكر يرنقش الزكويّ يحادثهم ويتماجن معهم، ثم أمر الوزير الرجّالة فعبروا ليمدّوا الجسر آخر النهار، فسار حينئذٍ دُبَيْس عائداً إلى الملك طُغرل، وسيّر الخليفة عسكراً مع الوزير في أثره، وعاد إلى بغداذ فدخلها، وكانت غيبته خمسة وعشرين يوماً.

ثم إنّ الملك طُغرل ودُبَيْساً عادا وسارا إلى السلطان سنجَر، فاجتازا بهمَذان، فقسّطا على أهلها مالاً كثيراً، وأخذاه وغابا في تلك الأعمال، فبلغ خبرهم السلطان محموداً، فجدّ السير إليهم، فانهزموا من بين يدَيْه، وتبِعتهم العساكر، فدخلوا خُراسان إلى السلطان سنجَر، وشكوا إليه من الخليفة ويرنقش الزكويّ[2].

---

(١) في الأوربية: «والنها».

(٢) المنتظم ٩/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣ (١٧/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩)، الفخري ٣٠٢، العبر ٤/ ٤٤، تاريخ الإسلام ٣٠٥، مرآة الجنان ٣/ ٢٢٣، البداية والنهاية ١٢/ ١٩٤ ـ ١٩٥.

ذكر فتح البُرسقيّ كفرطاب وانهزامه من الفرنج

في هذه السنة جمع البرسقيُّ عساكره وسار إلى الشام، وقصد كفرطابَ وحصرها، فملكها من الفرنج، وسار إلى قلعة عَزَازَ، وهي من أعمال حلب من جهة الشمال، وصاحبها جوسلين، فحصرها، فاجتمعت الفرنج، فارسها وراجلها، وقصدوه ليرحّلوه عنها، فلقيهم وضرب معهم مصافّاً، واقتتلوا قتالاً شديداً صبروا كلّهم فيه، فانهزم المسلمون وقُتل منهم وأسر كثير.

وكان عدد القتلى أكثر من ألف قتيل من المسلمين، وعاد منهزماً إلى حلب، فخلّف بها ابنَهُ مسعوداً، وعبر الفرات إلى الموصِل ليجمع العساكر ويعاود القتال[١]، وكان ما نذكره إن شاء الله تعالىٰ.

ذكر قتل المأمون بن البطائحيّ

في هذه السنة، في رمضان، قبض الآمر بأحكام الله العلويُّ، صاحب مصر، على وزيره أبي عبد الله بن البطائحيّ، الملقّب بالمأمون، وصلبه وإخوته.

وكان ابتداء أمره أنّ أباه كان من جواسيس الأفضل بالعراق، فمات ولم يخلّف شيئاً، فتزوّجت أمّه وتركته فقيراً، فاتّصل بإنسان يتعلّم البناء بمصر، ثم صار يحمل الأمتعة بالسوق الكبير، فدخل مع الحمّالين إلى دار الأفضل أمير الجيوش، مرّة بعد أخرى، فرآه الأفضل خفيفاً رشيقاً، حسن الحركة، حلو الكلام، فأعجبه، فسأل عنه، فقيل هو ابن فلان، فاستخدمه مع الفرّاشين، ثم تقدّم عنده، وكبرت[٢] منزلته، وعلت حالته، حتّى صار وزيراً.

وكان كريماً، واسع الصدر، قتّالاً، سفّاكاً للدماء، وكان شديد التحرّز، كثير التطلّع إلى أحوال الناس من العامّة والخاصّة من سائر البلاد: مصر، والشام، والعراق، وكثُر الغمّازون في أيّامه.

وأمّا سبب قتله: فإنّه كان قد أرسل الأمير جعفراً[٣] أخا الآمر ليقتل الآمر ويجعله

---

(١) تاريخ حلب للعظيمي ٣٧٥ (٤٠)، زبدة الحلب ٢/ ٢٣١، المختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٣٨، تاريخ الإسلام ٣٠٦، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٣٣.

(٢) في الأوربية: «وكثرت».

(٣) في الأوربية: «جعفر».

خليفة، وتقرّرت القاعدة بينهما على ذلك، فسمع بذلك أبو الحسن بن أبي أُسامة، وكان خِصّيصاً بالآمر، قريباً منه، وقد ناله من الوزير أذًى واطّراح، فحضر عند الآمر وأعلمه الحال، فقبض عليه وصلبه؛ وهذا جزاء من قابل الإحسان بالإساءة(١).

ذكر عدّة حوادث
[الوفيات]

في هذه السنة توفّي شمس الدولة سالم بن مالك(٢)، صاحب قلعة جَعْبَر، وتُعرف قديماً بقلعة دَوْسَر(٣).

وفيها قُتل القاضي أبو سعد محمّد بن نصر بن منصور الهَرَويُّ بهمذان، قتله الباطنيّة، وكان قد مضى(٤) إلى خُراسان في رسالة الخليفة إلى السلطان سنجَر، فعاد فقُتل، وكان ذا مروءة غزيرة، وتقدُّم كثير في الدولة السلجوقيّة.

وفي هذه السنة توفّي هلال(٥) بن عبد الرحمٰن بن شُرَيح بن عمر بن أحمد، وهو من ولد بلال بن رباح، مؤذّن رسول الله ﷺ، وكنيته أبو سعد(٦)، طاف البلاد، وسمع وقرأ القرآن، وكان موته بسَمَرْقَنْدَ.

(١) انظر عن (البطائحي) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥١٩ هـ.) ص ٤٣٤ ـ ٤٣٥ رقم ١٦٨، وفيه حشدت مصادر ترجمته.
(٢) تاريخ حلب للعظيمي ٣٧٥ ـ ٣٧٦ (٤١).
(٣) في طبعة صادر: «ذوس»، وهو غلط. والمثبت عن (معجم البلدان ٢/ ٤٨٤).
(٤) في الأوربية: «مضا».
(٥) انظر عن (هلال) في: المنتظم ١٧/ ٢٣٠ رقم ٣٩٣٧، والبداية والنهاية ١٢/ ١٩٥، وفيه «بلال».
(٦) في المنتظم: أبو سعيد.

٥٢٠
ثم دخلت سنة عشرين وخمسمائة

ذكر حرب الفرنج والمسلمين بالأندلس

في هذه السنة عظُم شأن ابن رُدمير الفرنجيّ بالأندلس، واستطال على المسلمين، فخرج في عساكر كثيرة من الفرنج، وجاس في بلاد الإسلام، وخاضها، حتّى وصل إلى قريب قُرْطُبَةَ، وأكثر النهب والسبي والقتل، فاجتمع المسلمون في جيشٍ عظيم زائد الحدّ في الكثرة، وقصدوه، فلم يكن له بهم طاقة، فتحصّن منهم في حصن منيع له اسمه أرنيسول[١]، فحصروه، وكبسهم ليلاً، فانهزم المسلمون، وكثُر القتل فيهم، وعاد إلى بلاده[٢].

ذكر قصد بلاد الإسماعيليّة بخُراسان

في هذه السنة أمر الوزير المختصّ أبو نصر أحمد بن الفضل، وزير السلطان سَنْجَر، بغزو الباطنيّة، وقَتْلهم أين كانوا، وحيثما ظُفر بهم، ونَهْب أموالهم، وسبْي حريمهم، وجهّز جيشاً إلى طُرَيْثِيث، وهي لهم، وجيشاً إلى بَيْهَقَ من أعمال نيسَابور، وكان في هذه الأعمال قرية مخصوصة بهم اسمها طرز[٣]، ومقدّمهم بها إنسان اسمه الحسن بن سمين.

وسيّر إلى كلّ طرف من أعمالهم جمعاً من الجُند، ووصّاهم أن يقتلوا من لقوه منهم، فقصد كلّ طائفة إلى الجهة التي سُيّرت إليها. فأمّا القرية التي بأعمال بَيهَق

---

(١) في نسخة بودليان: «أزنول»، وفي الباريسية: «أرسول».
(٢) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٢٠ هـ.) ص ٣١١.
(٣) في نسخة بودليان: «طور»، وفي الباريسية: طرر».

فقصدها العسكر، فقتلوا كلّ من بها، وهرب مقدّمهم، وصعِد منارة المسجد وألقى نفسه منها فهلك؛ وكذلك العسكر المنفَذ إلى طُرَيْثِيثَ قتَلوا من أهلها فأكثروا، وغنموا من أموالهم وعادوا[1].

ذكر ملك الإسماعيليّة قلعة بانياس

في هذه السنة عظُم أمر الإسماعيليّة بالشام، وقويت شوكتهم، وملكوا بانياس في ذي القعدة منها.

وسبب ذلك أنّ بهرام ابن أخت الأسداباذيّ، لمّا قُتل خاله ببغداذ، كما ذكرناه، هرب إلى الشام، وصار داعي الإسماعيليّة فيه؛ وكان يتردّد في البلاد، ويدعو أوباش الناس وطُغامهم إلى مذهبه، فاستجاب له منهم مَنْ لا عقل له، فكثُر جَمْعُه، إلاّ أنّه يُخفي شخصه فلا يُعرف، وأقام بحلب مُدّةً، ونَفَر إلى[2] إيلغازي صاحبها.

وأراد إيلغازي أن يعتضد به لاتّقاء الناس شرّه وشرّ أصحابه، لأنّهم كانوا يقتلون كلّ من خالفهم، وقصد من يتمسّك بهم، وأشار إيلغازي على طُغتِكين، صاحب دمشق، بأن يجعله عنده لهذا السبب، فقبِل رأيه، وأخذه إليه، فأظهر حينئذٍ شخصه، وأعلن دعوته، فكثُر أتباعه من كلّ من يريد الشرّ والفساد، وأعانه الوزير أبو طاهر بن سعد المرغينانيُ قصداً للاعتضاد به على ما يريد، فعظُم شرّه واستفحل أمره، وصار أتباعه أضعاف ما كانوا، فلولا أنّ عامّة دمشق يغلب عليهم مذاهب أهل السُّنّة، وأنّهم يشدّدون[3] عليه فيما ذهب إليه لملك البلد.

ثم إنّ بهرام رأى من أهل دمشق فَظاظة وغلظة عليه، فخاف عاديتهم، فطلب من طُغتِكين حصناً يأوِي إليه وهو ومن اتّبعه، فأشار الوزير بتسليم قلعة بانياس إليه، فسُلّمتْ إليه، فلمّا سار إليها اجتمع إليه أصحابه من كلّ ناحية، فعظُم حينئذٍ خطْبه، وجلّت المحنة بظهوره، واشتدّ الحال على الفقهاء والعلماء وأهل الدّين، لا سيّما أهل السُّنّة والسّتر والسلامة، إلاّ أنّهم لا يقدرون على أن ينطقوا بحرفٍ واحدٍ، خوفاً من سلطانهم أوّلاً، ومن شرّ الإسماعيليّة ثانياً، فلم يقدم أحد على إنكار هذه الحال، فانتظروا بهم الدوائر[4].

---

(١) تاريخ حلب (٣٧٦) (٤٢)، تاريخ الإسلام (٥٢٠ هـ.) ص ٣١١.

(٢) في الأوربية: «ونفق على».

(٣) في الأوربية: «يشددوا».

(٤) ذيل تاريخ دمشق ٢١٥، تاريخ الإسلام (٥٢٠ هـ.) ص ٣١٢، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/١١٨ ـ ١١٩، =

ذكر قتل البُرسقيّ وملك ابنه عزّ الدين مسعود

في هذه السنة، ثامن ذي القعدة، قُتل قسيم الدولة آقسنقَر البرسقيُّ، صاحب الموصِل، بمدينة الموصِل، قتلته الباطنيّة يوم جمعة بالجامع، وكان يصلّي الجمعة مع العامّة، وكان قد رأى تلك الليلة في منامه أنّ عدّةً من الكلاب ثارت به، فقتل بعضها، ونال منه الباقي ما آذاه، فقصّ رؤياه على أصحابه، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدّة أيّام، فقال: لا أترك الجمعة لشيء أبداً؛ فغلبوا على رأيه، ومنعوه من قصد الجمعة، فعزم على ذلك، فأخذ المُصحف يقرأ فيه، فأوّل ما رأى: ﴿**وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً**﴾[1]؛ فركب إلى الجامع على عادته، وكان يصلّي في الصفّ الأوّل، فوثب عليه بضعة عشر نفساً عدّة الكلاب التي رآها، فجرحوه بالسكاكين، فجرح هو بيده ثلاثة، وقُتل رحمه الله.

وكان مملوكاً تركيّاً، خيّراً، يحبّ أهل العلم والصالحين، ويرى[2] العدل ويفعله، وكان من خير الولاة يحافظ على الصلوات في أوقاتها، ويصلّي من الليل متهجّداً.

حكى لي والدي، رحمه الله، عن بعض من كان يخدمه قال: كنتُ فرّاشاً معه، فكان يصلّي كلّ ليلة كثيراً، وكان يتوضّأ هو بنفسه، ولا يستعين بأحد، ولقد رأيتُه في بعض ليالي الشتاء بالموصِل، وقد قام من فراشه، وعليه فرجيّة صغيرة وبَر، وبيده إبريق، فمشى[3] نحو دجلة ليأخذ ماء، فمنعني البرد من القيام، ثم إنّني خفتُهُ، فقمتُ إلى بين يدَيه لآخذ الإبريق منه، فمنعني وقال: يا مِسكين! ارجع إلى مكانك، فإنّه برد؛ فاجتهدت لآخذ الإبريق، فلم يُعطني، وردّني إلى مكاني، ثم توضّأ وقام يصلّي.

ولمّا قُتل كان ابنه عزّ الدين بحلب يحفظها من الفرنج، فأرسل إليه أصحاب أبيه بالخبر، فسار إلى الموصِل ودخلها أوّل ذي الحجّة، وأحسن إلى أصحاب أبيه بها، وأقرّ وزيره المؤيّدَ أبا غالب بن عبد الخالق بن عبد الرزّاق على وزارته، وأطاعه الأمراء والأجناد، وانحدر إلى خدمة السلطان محمود، فأحسن إليه وأعاده، ولم يختلف عليه أحد من أهل بلاد أبيه.

= أخبار مصر لابن ميسّر ٢/ ٧٠، الكواكب الدرّية ٩١، إتعاظ الحنفا ٣/ ١٢١ (حوادث ٥٢٢ هـ.)، المقفّى الكبير ٢/ ٥١٧.

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣٨.

(٢) في الأوربية: «درى».

(٣) في الأوربية: «فمشا».

ووقع البحث عن حال الباطنيّة، والاستقصاء عن أخبارهم، فقيل إنّهم كانوا يجلسون إلى إسكافٍ بدرب إيليا، فأُحضر ووُعد الإحسان إن أقرّ، فلم يقرّ، فهُدّد بالقتل، فقال: إنّهم وردوا من سنين لقتله، فلم يتمكّنوا منه إلى الآن؛ فقُطعت يداه ورِجلاه وذَكَرُهُ، ورُجم بالحجارة فمات.

ومن العجب أنّ صاحب أنطاكية أرسل إلى عزّ الدين بن البُرسقيّ يخبره بقتل والده قبل أن يصل إليه الخبر، وكان قد سمعه الفرنج قبله لشدّة عنايتهم[1] بمعرفة الأحوال الإسلاميّة.

ولمّا استقرّ عزّ الدين في الولاية قبض على الأمير بابكر بن ميكائيل، وهو من أكابِر الأمراء، وطلب منه أن يسلّم ابن أخيه قلعة إربل إلى الأمير فضل وأبي عليّ، ابنَيْ أبي الهيجاء، وكان ابن أخيه قد أخذها منه سنة سبع عشرة [وخمسمائة]، فراسل ابن أخيه، فسلّم إربل إلى المذكورَيْن[2].

ذكر الاختلاف الواقع بين المسترشد بالله والسلطان محمود

كان قد جرى بين يرنقش الزكويّ، شِحنة بغداذ، وبين نوّاب الخليفة المسترشد بالله نفرة تهدّده الخليفة فيها، فخافه على نفسه، فسار عن بغداذ إلى السلطان محمود في رجب من هذه السنة، وشكا إليه، وحذّره جانب الخليفة، وأعلمه أنّه قد قاد العساكر، ولقي الحروب، وقويت نفسه، ومتى لم تعاجلْه بقصد العراق ودخول بغداذ، ازداد قوّةً وجمعاً[3]، ومنعه عنه، وحينئذٍ يتعذّر عليه ما هو الآن بيده.

فتوجّه السلطان نحو العراق، فأرسل إليه الخليفة يعرّفه ما هي البلاد وأهلها عليه من الضعف والوهن، بسبب دُبَيْس، وإفساد عسكره فيها، وأنّ الغلاء قد اشتدّ بالناس لعدم الغلاّت والأقوات، لهرب الأكرة عن بلادهم، ويطلب منه أن يتأخّر هذه الدفعة إلى أن ينصلح حال البلاد ثم يعود إليها، فلا مانع له عنها؛ وبذل له على ذلك مالاً كثيراً.

فلمّا سمع السلطان هذه الرسالة قوي عنده ما قرّره الزكويُّ، وأبى أن يجيب إلى التأخّر، وصمّم العزم وسار إليها مُجِدّاً. فلمّا بلغ الخليفة الخبر عبر هو وأهله وحُرَمه

---

(١) في الأوربية: «عنايته».

(٢) انظر عن مقتل البرسقي في: تاريخ الإسلام (٥٢٠ هـ.) ص ٣١١، وفيه مصادر كثيرة.

(٣) في الأوربية: «وجماً».

ومَنْ عنده من أولاد الخلفاء إلى الجانب الغربيّ في ذي القعدة، مُظهراً للغضب والانتزاح عن بغداذ إنْ قصدها السلطان، فلمّا خرج من داره بكى[1] الناس جميعهم بكاء عظيماً لم يشاهد مثله. فلمّا علم السلطان ذلك اشتدّ عليه، وبلغ منه كلّ مبلغ، فأرسل يستعطف الخليفة، ويسأله العَود إلى داره، فأعاد الجواب أنّه لا بدّ من عَودك هذه الدفعة، فإنّ الناس هلكى بشدّة الغلاء، وخراب البلاد، وأنّه لا يرى في دينه أن يزداد ما بهم، وهو يشاهدهم، فإنْ عاد السلطان، وإلاّ رحل هو عن العراق لئلاّ يشاهد ما يلقى الناسُ بمجيء العساكر.

فغضب السلطان لقوله، ورحل نحو بغداذ، وأقام الخليفة بالجانب الغربيّ، فلمّا حضر عيد الأضحى خطب النّاسَ، وصلّى بهم، فبكى الناس لخطبته، وأرسل عفيفاً الخادم، وهو من خواصّه، في عسكر إلى واسط ليمنع عنها نوّاب السلطان فأرسل السلطان إليه عماد الدين زنكي بن آقسنقَر، وكان له حينئذٍ البصرة، وقد فارق البرسقيَّ، واتّصل بالسلطان، فأقطعه البصرة.

فلمّا وصل عفيف إلى واسط سار إليه عماد الدين، فنزل بالجانب الشرقيّ، وكان عفيف بالجانب الغربيّ، فأرسل إليه عماد الدين يحذّره القتال، ويأمره بالانتزاح عنهم، فأبى[2] ولم يفعل فعبر إليه عماد الدين، واقتتلوا، فانهزم عسكر عفيف، وقُتل منهم مقتلة عظيمة، وأُسر مثلهم، وتغافل عن عفيف حتّى نجا لمودّةٍ كانت بينهما.

ثمّ إنّ الخليفة جمع السفن جميعها إليه، وسدّ أبواب دار الخلافة سوى باب النُّوبيّ، وأمر حاجب الباب ابن الصاحب بالمقام فيه لحِفظ الدار، ولم يبق من حواشي الخليفة بالجانب الشرقيّ سواه.

ووصل السلطان إلى بغداذ في العشرين من ذي الحجّة، ونزل بباب الشمّاسيّة، ودخل بعض عسكره إلى بغداذ ونزلوا في دور الناس، فشكا الناس ذلك إلى السلطان، فأمر بإخراجهم، وبقي فيها من له دار، وبقي السلطان يراسل الخليفة بالعود، ويطلب الصُّلح، وهو يمتنع.

وكان يجري بين العسكرَيْن مناوشة، والعامّة من الجانب الغربيّ يسبّون السلطان أفحش سب. ثم إنّ جماعة من عسكر السلطان دخلوا دار الخلافة، ونهبوا التاج،

---

(١) في الأوربية: «بكا».

(٢) في الأوربية: «فأبا».

وحُجَر الخليفة، أوّل المحرّم سنة إحدى وعشرين [وخمسمائة]، وضجّ أهلُ بغداذ من ذلك، فاجتمعوا ونادوا الغزاة، فأقبلوا من كلّ ناحية، ولمّا رآهم الخليفة خرج من السُرادق والشمسة على رأسه، والوزير بين يدَيْه، وأمر بضرب الكوسات والبوقات، ونادى بأعلى صوته: يا آل هاشم! وأمر بتقديم السفن، ونصب الجسر وعبر الناس دفعةً واحدةً، وكان له في الدار ألف رجل مختفين في السراديب، فظهروا، وعسكر السلطان مشتغلون بالنهب، فأسر منهم جماعة من الأمراء، ونهب العامّة دار وزير السلطان، ودور جماعة من الأمراء، ودار عزيز الدين المستوفي، ودار الحكيم أوحد الزمان الطبيب، وقُتل منهم خلق كثير في الدروب.

ثم عبر الخليفة إلى الجانب الشرقيّ، ومعه ثلاثين ألف مقاتل من أهل بغداذ والسواد، وأمر بحفر الخنادق، فحُفرت بالليل، وحفظوا بغداذ من عسكر السلطان، ووقع الغلاء عند العسكر، واشتدّ الأمر عليهم، وكان القتال كلّ يوم عليهم عند أبواب البلد وعلى شاطىء دجلة، وعزم عسكر الخليفة على أن يكبسوا عسكر السلطان، فغدر بهم الأمير أبو الهيجاء الكرديُّ، صاحب إربل، وخرج كأنّه يريد القتال، فالتحق هو وعسكره بالسلطان.

وكان السلطان قد أرسل إلى عماد الدين بواسط يأمره أن يحضر هو بنفسه، ومعه المقاتلة في السفن، وعلى الدوابّ في البرّ، فجمع كلّ سفينة في البصرة إلى بغداذ، وشحنها بالرجال المقاتلة، وأكثر من السلاح، وأصعد، فلمّا قارب بغداذ أمر كلّ من معه في السفن وفي البرّ بلبس السلاح، وإظهار ما عندهم من الجَلَد والنهضة، فسارت السفن في الماء، والعسكر في البرّ على شاطىء دجلة قد انتشروا وملأُوا الأرض برّاً وبحراً، فرأى الناس منظراً عجيباً، كبُر في أعينهم، وملأ صدورهم، وركب السلطان والعسكر إلى لقائهم، فنظروا إلى ما [لم] يروا مثله، وعظُم عماد الدين في أعينهم، وعزم السلطان على قتال بغداذ حينئذٍ، والجدّ في ذلك في البرّ والماء. فلمّا رأى الإمام المسترشد بالله الأمر على هذه الصورة، وخروج الأمير أبي الهيجاء من عنده، أجاب إلى الصلح، وتردّدت الرسل بينهما، فاصطلحا، واعتذر السلطان ممّا جرى، وكان حليماً يسمع سبّه بأُذُنه فلا يعاقب عليه، وعفا عن أهل بغداذ جميعهم.

وكان أعداء الخليفة يشيرون على السلطان بإحراق بغداذ، فلم يفعل، وقال: لا تساوي الدنيا فعل مثل هذا. وأقام ببغداذ إلى رابع شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين [وخمسمائة]، وحمل الخليفة من المال إليه كما استقرّت القاعدة عليه، وأهدى له

سلاحاً وخيلاً وغير ذلك، فمرض السلطان ببغداذ، فأشار عليه الأطبّاء بمفارقتها، فرحل إلى هَمَذَان، فلمّا وصلها عوفي[١].

ذكر مصافّ بين طغتكين أتابك والفرنج بالشام

في هذه السنة اجتمعت الفرنج وملوكها وقمامصتها وكنودها وساروا إلى نواحي دمشق، فنزلوا بمرج الصُّفّر عند قرية يقال لها سَقْبَا[٢] بالقرب من دمشق، فعظُم الأمر على المسلمين واشتدّ خوفهم، وكاتب طُغتِكين أتابك صاحبها أُمراء التركمان من ديار بكر وغيرها وجمعهم. وكان هو قد سار عن دمشق إلى جهة الفرنج، واستخلف بها ابنه تاج الملوك بوري فكان بها، كلما جاءت طائفة أحسن ضيافتهم وسيّرهم إلى أبيه، فلمّا اجتمعوا سار بهم طُغتكين إلى الفرنج، فالتقوا أواخر ذي الحجّة واقتتلوا، واشتدّ القتال، فسقط طُغتِكين عن فرسه، فظنّ أصحابه أنه قُتل، فانهزموا وركب طُغتكين فرسه ولحِقهم، وتبِعهم الفرنج، وبقي التركمان لم يقدروا أن يلحقوا بالمسلمين في الهزيمة فتخلّفوا، فلمّا رأوا فرسان الفرنج قد تبِعوا المنهزمين، وأنّ معسكرهم وراجلهم ليس له مانع ولا حام، حملوا على الرجّالة فقتلوهم، ولم يسلم منهم إلاّ الشريد، ونهبوا معسكر الفرنج وخيامهم وأموالهم وجميع ما معهم. وفي جملته كنيسة وفيها من الذهب والجواهر ما لا يقوّم كثرةً، فنهبوا ذلك جميعه، وعادوا إلى دمشق سالمين لم يُعدم منهم أحدٌ. ولمّا رجع الفرنج من أثر المنهزمين ورأوا رجّالتهم قتْلَى وأموالهم منهوبة تمّوا منهزمين لا يلوي الأخ على أخيه، وكان هذا من الغريب أنّ طائفتَيْن تنهزمان[٣] كلّ واحدة منهما من صاحبتها.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة حصر الفرنج رَفَنِيَةَ من أرض الشام، وهي بيد المسلمين، وضيّقوا عليها فملكوها[٤].

وفيها توفّي أبو الفتح أحمد بن محمّد بن محمّد الغزالي[٥]، الواعظ، وهو أخو

---

(١) تاريخ دولة آل سلجوق ١٤١، تاريخ الإسلام (٥٢٠ هـ.) ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

(٢) في طبعة صادر ١٠/٦٣٩: «سقحبا»، والتصحيح من: معجم البلدان ٣/٢٢٦.

(٣) في الأوربية: «ينهزمان».

(٤) تاريخ حلب للعظيمي ٣٧٦ (٤١)

(٥) انظر عن (الغزالي) في: المنتظم ١٧/٢٣٧ ـ ٢٤٠ رقم ٣٩٣٩، والبداية والنهاية ١٢/١٩٦، وشذرات الذهب ٤/٦٠.

الإمام أبي حامد محمّد، وقد ذمّه أبو الفرج بن الجوزيّ بأشياء كثيرة منها: روايته في وعظه الأحاديث التي ليست له بصحيحة، والعجب أنّه يقدح فيه بهذا، وتصانيفه هو ووعْظه محشوّ به، مَمْلُوءٌ[1] منه، نسأل الله أن يعيذنا من الوقيعة في الناس، ثم يا ليت شِعري أما كان للغزاليّ حسنة تُذكر مع ما ذكر من المساوىء التي نسبها إليه، لئلاّ يُنسب إلى الهوى والغَرَض؟

(١) في الأوربية: «مملوّ».